بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

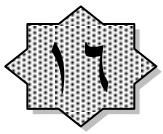

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ١٦ ـ رمضان ١٤٢٩هجرية قمرية

شهريور ١٣٨٧هجرية شمسية / أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٨م

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: 88321616 9821+هاتف: 88321411 9821+

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥-١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقــع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب
ملحق
رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ١٦

رسائل القرآن ٤

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ١١

حوار مع الشيخ محمد علي التسخيري ١٤

رمضان – والتقريب ٢٢

رمضان – والمقاومة ٢٥

المثقفون والعبور من الأيديولوجيا إلى الابستملوجيا ٢٨

الإنسان والحيوان ٣٣

السمات العامة لفكر الشهيد مرتضى المطهري ٤٤

ابن نباتة السعدي (من رموز التواصل الثقافي الإيراني العربي) ٥٩

الحضارة الإسلامية تدعو إلى الحوار ٦٤

تحدّي التجزئة الطائفية ٨١

حي بن يقظان لابن طفيل ٨٦

انتصارات في ساحة جهاد النفس ٩٩

من هنا وهناك ١٠٩

فوائد مهمة لاستثمار خير الشهور ١١٥

رسائل القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

*
محسن قراءتي

٥١-﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

● ورد ذكر موسى(ع) في ٣٤ سورة وتكرر ١٣٦ مرة، وقصة ميعاد هذا النبي الكريم وردت أيضا في سورة الأعراف/ ١٤٢، وطه/٨٦. الميعاد جبل الطور، وكانت المدة ثلاثين يومًا، ثم زادت عشرًا، فارق موسى قومه خلالها ليتلقى التوارة. وبنو إسرائيل نسوا فيها نِعم الله عليهم رغم أن خليفته هارون أخا موسى كان بين ظهرانيهم، واتجهوا إلى عبادة العجل الذي كان قد صنعه لهم السامري من ذَهَب القوم.

● يُستفاد من آيات القرآن الكريم أن هذا الوعد قُصد منه ثلاثة أمور: تلقي

---

* - داعية إسلامي معروف.

التوراة، وإثبات مقام الخلافة لهارون، واختبار بني إسرائيل.

● ثمة عوامل اشتركت في سقوط مجتمع بني إسرائيل في حبائل الشرك:

آ-غياب القائد موسى(ع).

ب-حضور فنانين منحرفين مثل السامري.

ج-الاستفادة من الذهب والحلية مما له بريق خلاّب في النفوس.

د-استخدام الأبواق الإعلامية، فالعجل كان له صوت وخوار.

هـ سذاجة القوم وعدم تعمّق الإيمان في نفوسهم.

و-سوابقهم في عبادة العجل.

● انعزال القادة الإلهيين لمدة محدودة للعبادة عمل مُستحسن: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ .

● عبادة الله سبحانه أربعين ليلة بمعزل عن الناس لها آثار خاصة: ﴿ أربعين ليلة﴾

● الشرك ظلم بالإنسانية، فالمشرك ينفض يده من ربّ العالمين ويضعها في يد العاجزين: ﴿وأنتم ظالمون ﴾ .

٥٢-﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

الرسائل:

● باب التوبة مفتوح حتى للمشرك وعابد العجل: ﴿ثم عفونا

عنكم﴾لأن رسالة السماء هي لإنقاذ الإنسان من الشرك والكفر.

ولذلك فإن قوله سبحانه: ﴿إنّ الله لا يغفرُ أن يُشرك به﴾ إنما هو لمن يموت وهو مشرك.

● العفو الإلهي يمهّد للشكر: ﴿ثم عفونا.. لعلكم تشكرون﴾ .

٥٣- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

الرسائل:

● الفرقان ما يفرّق بين الحق والباطل. والكتاب السماوي يفعل ذلك، ولعل المراد بالفرقان بعد ذكر الكتاب في هذه الآية المعاجز التسع، أو حقائق أخرى غير التوراة أُعطيت لموسى(ع).

● حجة الله بالغة وتامة، لكنّ الأهواء قد تمنع قبول الحق: ﴿لعلّكم﴾ .

٥٤-﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

الرسائل:

- المراد من قتل النفس في الآية ليس هو الانتحار، بل أن يقتل بعضهم بعضًا، نظير قوله سبحانه: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي لا يلمز بعضكم بعضًا، وقوله: ﴿ فسلّموا على أنفسكم﴾ أي ليسلّم بعضكم على بعض.
- قبول هذا النحو من التوبة الصعبة فضيلة لقوم موسى، فالله سبحانه يوبّخ المسلمين المنافقين بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .
- لابدّ من مخاطبة الناس باللطف لقبول التكليف الإلهي: ﴿ياقوم... فاقتلوا ﴾ .
- الشرك ظلم للنفس: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾.
- كلما كانت الأدلة والبراهين والمعاجز أكثر كان التكليف أثقل، وكان خطر الانحراف أفدح. عبادة العجل، بعد مشاهدة كل تلك المعجزات، لم تكن لها توبة سوى الإعدام: ﴿ فتوبوا... فاقتلوا أنفسكم﴾ .
- حكم المرتد في شريعة موسى القتل.
- الموت في ظل الرحمة الإلهية خير من الحياة مقرونة باللعنة الإلهية: ﴿ ذالكم خيرٌ لكم﴾ .
- إجراء الحدود الإلهية هو لصالح الإنسان وإن تمّ بقيمة قتل الإنسان: ﴿فاقتلوا.. ذلكم خير لكم ﴾ .
- أساس الأوامر الإلهية هو مصلحة الإنسان: ﴿ذلكم خير لكم﴾ .

● الغرامات الثقيلة يجب أن تُقرن ببركات وخيرات ليستعد الناس إلى دفعها: ﴿ فاقتلوا... ذلكم خير لكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ .

٥٥-﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

الرسائل:

● قوم موسى صاروا على قسمين:

الأول: مجموعة مختارة ذهبت مع موسى(ع) إلى جبل الطور لمناجاة الله واستماع كلامه. لكنهم حين سمعوا مادار بين الله ونبيه قالوا: من أين لنا أن نعرف أنّ هذا صوت الله، لابدّ أن ﴿نرى الله جهرة ﴾ حتى نصدّق.

الثانية: جماعة بقيت مع هارون، لكنها في غياب موسى عبدت العجل.

بشأن المجموعة الأولى التي أصرّت على رؤية الله جهرة يقول سبحانه في سورة الأعراف/ ١٥٤: ﴿فأخذتهم الرجفة ﴾ وفي هذه الآية يقول: ﴿فأخذتكم الصاعقة ﴾ ولعل الرجفة والصاعقة قد اقترنتا وأدتا إلى موتهم، والآية التالية تذكر عودتهم إلى الحياة.

● منطلقات السائلين لم تكن متشابهة. موسى عليه السلام طلب رؤية الله: ﴿أرني ﴾ بأدب، لكن قوم موسى طلبوا ذلك بلهجة تدلّ على تكبّر ولجاج: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ .

ولذلك كان الجواب لموسى: ﴿لن تراني﴾ ، وكان الجواب للقوم الرجفة والصاعقة وعذاب الله.

● هذه الآية تثبّت قلبَ النبي الخاتم(ص) وتبعد عنه ماكان يعاني منه بسبب الطلبات السخيفة لقومه، فما طلب قوم موسى كان أخطر.

● مواقف الأقوام السابقة فيها عبرة وعظة، من تلك تعاملهم مع الرسالة بلجاج وسوء أدب، وطلب المحال، وما آل إليه أمرهم: ﴿لن نؤمن.. فأخذتكم﴾ .

● هناك من يكفيه المنطق والاستدلال والعظة، وثمة من لا ينفع معه إلاّ القهر والغلبة: ﴿ فأخذتكم﴾ .

● إن تعذرت رؤية الله سبحانه، فإن آثاره قابلة للرؤية فلماذا لا تؤمنون برؤية الآثار: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

٥٦- ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

الرسائل:

● كان بعث الجماعة من بني إسرائيل بعد موتهم على أثر الصاعقة إجابة لدعاء موسى(ع)، ولقلقه واضطرابه كما سيأتي في سورة الأعراف..

● كان في بعث هؤلاء القوم دليل إيماني جديد على البعث يوم القيامة: ﴿بعثناكم من بعد موتكم﴾.

● الهدف من كل ما يمرّ على الفرد والجماعة البشرية من

مِحَـن وابـتلاء هـو أن يكونـوا شـاكرين: ﴿بعثنـاكم ... لعلكـم تشكرون﴾.

٥٧ ـ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِـن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

الرسائل:

● بعد نجاة بني إسرائيل من سيطرة فرعون، أُمروا أن يدخلوا أرض فلسطين، وبحجة أن في تلك الأرض قومًا جبارين ظالمين عصوا نبيهم وقالوا له: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾. وبذلك غضب الله عليهم، وظلّوا ﴿ أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ غير أن الله سبحانه منّ عليهم هناك بالغمام يظلّهم، وأنزل عليهم نوعين من الطعام: المنّ، وهو شيء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمة كالشهد والعسل، وقد يكون جميع ما مَنّ به الله من النِعَم، والسلوى، وهو السُّمانَى، أو طائر أبيض يشبه السُمانَى.

● حركة الرياح والغيوم بإذن الله سبحانه: ﴿ ظلّلْنا عليكم الغَمام﴾

● الله سبحانه يمدّ عباده من رزقه في كل الظروف. فالمنّ والسلوى نزلت على بني إسرائيل رغم ماكانوا يعيشون فيه من ظروف خاصة.

● الرزق الذي قدّره الله لعباده إنما هو من الطيبات: ﴿ كُلُوا من طيّبات ما رزقناكم﴾ .

● عدم الالتزام بالتعاليم الإلهية ظلم بالنفس:﴿ ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون﴾ .

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي

التعددية المذهبية

من الشبهات التي توجّه إلى تيار التقريب بين المذاهب الإسلامية هو أنه يستهدف تحويل المسلمين من مذهب إلى مذهب آخر.

وقد أعلن القائمون على أمر التقريب قديمًا وحديثًا أنهم لا يستهدفون تحويل المسلمين عن مذهبهم، ولا يدعون إلى توحيد المذاهب، بل يدعون إلى أن ينفتح أصحاب المذاهب على بعضهم، فيفهم بعضهم الآخر مباشرة دون تأثير من أوهام منتشرة أو دعايات زائفة، أو حساسيات تاريخية.

هذا الهدف أعلنته مرارًا دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، وواصل هذا الإعلان المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية بتوجيه من السيد القائد الخامنئي.

و«التعارف» بين المذاهب يتطلب عملاً علميًا مخلصًا ومنفتحًا ليقدّم علماء المذاهب مشروعهم العلمي بأسلوب منطقي هادئ رصين بعيد عن الاستفزاز والإثارات.

كل مذهب من المذاهب الإسلامية يشكل تيارًا علميًا فكريًا

يثري المشروع الإسلامي ويوسّع آفاق الفكر والاجتهاد. وكلّما سعى علماء المذهب إلى تعميق علمي لما عندهم فإن ذلك يصبّ في المصلحة الإسلامية الكبرى.

وفي هذا الصدد يقول السيد القائد:

«من الواضح أننا لا ندعو إلى أن يتحول الشيعة إلى سنّة، أو السنة إلى شيعة، ولا أن تنحلّ المذاهب في مذهب واحد، ولا نطلب أن يكفّ الشيعة أو السنّة عن العمل العلمي بمقدار ما يستطيعون لتعميق مدرستهم الفكرية، العمل العلمي لا غبار عليه بل هو مفيد جدًا».

العمل العلمي هو غير الاستفزاز. بعضهم يتذرع بحرية الفكر والكتابة والنشر ليطرح أمورًا تستفزّ ويثير الحساسيات، ومثل هذا العمل إما أن يكون صادرًا عن جهل وتعصّب أو عن غرض خفيّ.

الخطّ الفاصل بين العمل العلمي والاستفزاز واضح كل الوضوح، فالعمل العلمي يقوم على أساس المنطق والاستدلال والحجّة والبينة بل على ما اتفق عليه المسلمون من قرآن وسنّة. والعمل الاستفزازي يحدوه هوى النفس ويقوم على أساس المغالطة والتركيز على مساحات الاختلاف، ولا يحترم الآخر.

يقول السيد القائد:

«بعض دعاة اتحاد المسلمين يرفضون تعدد

المذاهب. رفض التعددية المذهبية لا يحلّ مشكلة، بل الاعتراف بتعدد المذاهب هو الذي يحلّ المشكلة. هذه المذاهب الموجودة عليها أن تمارس نشاطها كل في دائرة عملها، وعليها أيضا أن تقيم فيما بينها علاقات طيبة. ليؤلفوا كتبًا علميّة في جوّ علمي لا في جوّ غير علمي، لو أراد أحدٌ أن يقدّم خطابًا يقوم على أساس منطقي فلا يجوز أن يمنعه مانع. أمّا إذا أراد أحدٌ بكلامه أو بعمله أو بأية ممارسة أخرى أن يثير الخلافات فرأينا فيه أنه يخدم العدوّ. ولابد أن يكون السنة وأن يكون الشيعة أيضا على حذر.

من حقّ أي شخص ومن أي مذهب كان أن يحترم عقائده ومقدّساته، لكن هذا الاحترام لا يجوز أن تشوبه إهانة بمقدسات الآخر الذي يختلف معه. نحن نؤمن بإسلام واحد وبكعبة واحدة وبنبي واحد، وبصلاة واحدة، وبحج واحد، وبجهاد واحد، نؤمن بشريعة واحدة ونعمل بها.

«مساحة الاختلاف أقل بكثير من مساحات الاتفاق. أعداء الإسلام يستهدفون إثارة الاختلافات بين السنّة والشيعة لا في بعض نقاط إيران فحسب، بل في جميع العالم الإسلامي».

حوار مع الشيخ
محمد علي التسخيري

● باعتباركم رجلا عرفه العالم الإسلامي بمواقفه الفكرية والسياسية والثقافية في المؤتمرات العالمية،ورجل الفقه والدعوة في المجامع الفقهية والدعوية. هل لكم أن تتفضلوا علينا بنبذة عن تصوركم عن التقريب ونشاطاتكم التقريبية ؟

ـ أعتقد أن هذا الهدف الكبير تصغر عنده كل الأعمال حتى لا تكاد تبين، فالتقريب بين المذاهب الإسلامية يعني: العمل على تعرف كل مذهب إسلامي على الآخر وتشخيص مواقفه الحقيقية وتحديد آرائه من مظانها الأصيلة، فإذا تم ذلك أدى بلا ريب إلى انكشاف مساحة فكرية مشتركة ضخمة ربما تتضاءل أمامها مساحة الاختلاف، حتى لا تكاد تعدل شيئا، وذلك لوحدة المصادر، ووحدة الأسلوب، وبالتالي وحدة الجو العام الذي يتنفس من خلاله الساعون نحو الحقيقة.

التقريب إذن: هدف مقدس يجب أن لا يغفله العلماء والمفكرون. أما نشاطاتي في التقريب فأتصور أنها قليلة ولكنها تشمل:

أ ـ تأليف بعض الكتب والكراسات التي تساهم في دفع عملية التقريب إلى الأمام من قبيل صلاة الجمعة في روايات الفريقين، الصوم (كذلك)، الحج (كذلك)، والى الوحدة الإسلاميّة.

ب ـــ المساهمة الفعالة في أكبر مجمع تقريبي فقهي وهو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة حيث تحضره المذاهب الثمانية المعروفة ويشارك فيه فقهاء مندوبون عن أكثر من خمسين دولة إسلامية بالإضافة إلى الخبراء المنتخبين.

حـ – كتابة العديد من المقالات التقريبية والتي نشرت في مجلات مختلفة من قبيل (رسالة التقريب) و(رسالة الثقلين) و(مجلة الجامعات الإسلامية) في المغرب، وغيرها كثير.

د – المساهمة الجادة في المجلس الأعلى للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة وهو الذي يشرف على مجمع التقريب ويحدد سياساته، ثم في مسؤولية الأمين العام للمجمع بأمر من السيد القائد.

هـ –المساهمة في جامعة المذاهب الإسلامية باعتباري رئيسًا لمجلس أمنائها.

و – المساهمة الفعالة في مؤتمر الوحدة الإسلامية الذي يجعل التقريب نصب عينيه، وإقامة هذه المؤتمرات.

بالإضافة إلى المساهمة في عشرات المؤتمرات الدولية وطرح هذه الفكرة في كل فرصة مناسبة.

وغير ذلك من النشاطات ولكن ما أزال أعتقد أنها جميعًا لم ترق إلى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقنا في هذا السبيل.

● لقد كانت لكم لقاءات واسعة مع الشخصيات والجماعات من أهل السنة. فكيف وجدتم موقفهم من التقريب ؟

من خلال لقاءاتي العديدة لم ألا حظ أية عقبة في سبيل تفهم فكرة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، والخروج من قوقعة الصراع المذهبي والتعصب الطائفي. إلاّ أن الملحوظ وجود نوع من التشكيك في أهداف القائمين على العملية. هذا التشكيك قد ينبعث بعفوية، ولكنه في الغالب معلول لسياسات استعمارية، أو مصالح ضيقة، أو تعصب مقيت أو سطحية في التفكير. من قبيل ما نجده أحيانًا من رؤى تعتبر اللقاء بين السنة والشيعة مستحيلا، في حين يدعو القرآن الكريم إلى الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب بل إلى استماع القول وإتباع أحسنه من أي إنسان صدر، بل ونجد القرآن يعلمنا أروع لغة للحوار مع المشركين من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾.

● لقد عرف الشهيد الصدر (رض) بقدرته الفكرية والتنظيرية وبمواقفه الجهادية الملتزمة. ولكن الجانب التقريبي من نشاطات الشهيد الصدر يكاد أن يكون غير معروف وارتباطكم الوثيق بالشهيد الصدر يدعوني أن أسألكم عن موقفه من مسألة التقريب؟

ـ الإمام الشهيد الصدر كان من رواد هذه الحركة. معظم دراساته العميقة تؤدي إلى نظرة إسلامية تقريبية جامعة. كان يركز على المصادر السنية كما يركز على المصادر الشيعية، وكان يعنى بآراء المفكرين والعلماء من الفريقين، وكان يتعامل مع أتباع أهل السنة بنفس المستوى الذي يتعامل به مع أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام. وقد اشتهرت عنه عبارته المشهورة: "يا أبناء السنة أنا لكم كما أنا للشيعة" وإذا كانت له دراسات يدافع فيها عن مدرسة أهل البيت فهي تنصب في إطار الدراسات العلمية الموضوعية لا غير.

لقد كان الشهيد يعشق الوحدة الإسلاميّة، ويعيش لها، ويتفاعل مع قضاياها، ويقدم لها ما لديه من فكر وعاطفة.

● لقد توليتم أمدًا مجمع أهل البيت عليهم السلام. أليس في هذا العمل تكريس للطائفية ؟

مجمع أهل البيت تكريس للوحدة الإسلاميّة لا غير، إنه يعمل على تعميق أحد أسس الوحدة الإسلاميّة وهو (حب أهل البيت عليهم السلام)، وهو أمر أجمعت عليه النصوص الإسلاميّة (قرآنًا وسنة) وقبلته الأمة الإسلاميّة كبديهة شرعية مسلمة. والمرجعية العلمية لهم أمر أكدته أحاديث الثقلين بما لا يقبل التشكيك.

وأنتم تعلمون أن المجمع المذكور مجمع ثقافي يعمل على التعريف بأهل البيت عليهم السلام فكرًا وثقافة وسلوكًا، ويسعى

لدعم قضية الوحدة الإسلاميّة من خلال عرض الفكر الوحدوي الأصيل لأهل البيت عليهم السلام. بل ومن خلال معارضته لكل دعوة طائفية ممزقة، ومنعه لأية توجهات انعزالية. ولا أدل على هذا الاتجاه مما أصدره من منشورات وما قام به من نشاطات في المؤتمرات الدولية المتنوعة.

● **بالنسبة لرابطة الثقافة والعلاقات الإسلاميّة التي توليتم رئاستها أمدًا، وهي أكبر مؤسسة ثقافية في الجمهورية الإسلاميّة دون شك، هل لها أهداف مستقبلية في مسألة التقريب؟**

– ينص النظام الأساسي لرابطة الثقافة والعلاقات الإسلاميّة على هذا الهدف بكل وضوح، حيث تصرح المادة الثانية

(الفقرة الأولى) بأن من أهداف الرابطة العمل على إحياء الفكر الإسلامي ونشر المعارف الإسلاميّة في العالم بهدف تحقيق الصحوة الإسلاميّة، وإيصال صوت الإسلام الحق إلى العالم، كما تؤكد الفقرة السادسة من هذه المادة على أن من الأهداف تحقيق الأرضية المناسبة للوحدة الإسلامية وتشكيل الجبهة الإسلاميّة الواحدة على أساس المبادئ الإسلاميّة الأصيلة.

وبطبيعة الحال فإن هذه الرابطة تعمل جنبًا إلى جنب مع مجمع التقريب العالمي لتحقيق أهدافه المرجوة.

● **ما هي العقبات الأساسية التي تقف بوجه التقريب في اعتقادكم؟**

– يمكن تلخيص أهم العقبات التي تقف بوجه حركة التقريب بما يلي:

أولاً: التآمر الاستعماري والهجوم الثقافي المعادي لوحدة الأمة الإسلاميّة.

ثانيًا: الجهل بحقيقة الإسلام وخصائص الأمة الإسلاميّة كما يبينها القرآن الكريم.

ثالثا: التعصب الأعمى للمذهب أو للفكرة الخاصة وتصور انحصار الحقيقة بها وعدم إمكان اجتماعها مع الآراء الأخرى.

رابعًا: المصالح الخاصة لبعض الحكومات العميلة التي لا يروق لها أن يتقدم المسلمون على هذا السبيل.

● **تتوجه جل اهتماماتكم إلى إحياء الرابطة الإسلاميّة من خلال العلاقات الثقافية والعلمية. ما هي الآفاق المستقبلية لوحدة الأمة الإسلاميّة في رأيكم ؟**

– الحديث عن الآفاق المستقبلية لوحدة الأمة الإسلاميّة حديث مفصل إلاّ أنني أحاول أن ألخصه في نقاط.

الأولى: أن إيماننا بنصوصنا الإسلاميّة يعطينا الثقة الكاملة بأن المستقبل للإسلام بكل مقتضياته ومنها مسألة وحدة الأمة.

الثانية: أن التأمل في مسيرة هذه الأمة والمراحل التي قطعتها

والعقبات التي اجتازتها – وهي كالجبال – يوضح لنا أن المسيرة لابد وأن تنتهي إلى الغد المشرق.

الثالثة: أن الصحوة الإسلاميّة اليوم والتي جاءت نتيجة عوامل في طليعتها نجاح الثورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخميني الراحل (رضي الله عنه) تبشر بألف خير بعد ملاحظة امتدادها كالعافية في العروق، وكالنور في حنادس الظلام، وملاحظة مظاهرها الكثيرة ومنها: إحياء الأمل في النفوس، والعمل على استعادة العزة، والسعي لتطبيق الإسلام على مجالات الحياة، والعمل الدؤوب لنشر الخلق والأعراف الإسلاميّة في المجتمعات. كل ذلك يؤكد لنا أن الغد المشرق آتٍ بلا ريب.

الرابعة: أن طبيعة التشريع الإسلامي في نظمه وتصوراته لابد وأن تنتهي بالأمة يومًا ما إلى الهدف المطلوب.

أود في ختام إجابتي أن أؤكد لكم أنني متفائل تمام التفاؤل بمستقبل هذه المسيرة ومنتظر لها غاية الانتظار.

- **ما هو دور غلاة الفريقين في هدم أسس التقريب ؟**

– الغلاة آفة هذه الأمة، إنهم يحولون الجسر إلى عقبة، والنبي إلى إله، والولي الوسيلة إلى الله إلى وسيلة نحو التحلل من الواجبات. إنهم المطرودون على لسان الله تعالى والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والقادة من أهل البيت عليهم السلام والصحابة المنتجبين.

الغلاة عُمي عن الحق، وصم عن كلمته، فيجب أن لا يفسح المجال لهم ليقودوا الساحة، ولكن يجب أن نتأكد من هذه الصفة فلا نرمي بها بريئًا ، ولا نعتبرها مطرقة نصب بها جام غضبنا على العاملين المخلصين في سبيل الحق. والله الهادي إلى سواء السبيل

● **ما هي الكلمة التي توجهونها إلى المسلمين بمختلف مذاهبهم بشأن مسألة الوحدة والتقريب ؟**

– أعتقد أن أهم ما يمكن أن يلتفت إليه المسلمون هو أن الوحدة من أهم خصائص الأمة الإسلامية، وبدونها فإن السمات العامة تبقى غير متوفرة بل وتتوقع الآثار السلبية الكبرى. يقول تعالى ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ إن الأمة واحدة والموارد واحدة والأحاسيس واحدة، فيجب أن تُمحى الفوارق غير الطبيعية، ويجب أن تزول الجفوة، ويجب أن تسكت الأبواق الممزقة، ولابد أن ينمحي التمييز العنصري والوطني واللغوي والجغرافي ويرتفع شعار ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

رمضان - والتقريب

يحلّ شهر رمضان المبارك كل عام ويحمل معه العطاء تلو العطاء، ومن عطاء هذا الشهر الكريم توجيه جميع المسلمين نحو فريضة واحدة، هي الصوم.

ولا يوجد بين المذاهب الإسلامية اختلاف في زمان هذه الفريضة ولا في واجباتها ومستحبّاتها، لأنّها الفريضة التي وردت نصوصها صريحة في القرآن والسنّة، وعمل بها رسول الله والصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن اهتدى بهداهم إلى يومنا هذا.

هذه الفريضة واحدة من الدلائل التي تؤكد أن المسلمين جميعًا متعلقون بأهداب القرآن والسنّة.. لا يحيدون عنهما، وتؤكد أيضًا مساحة الاشتراك الكبرى بين المذاهب على اختلاف طرقهم إلى رسول الله(ص).

هذه حقيقة هامّة يجب أن يعيها المسلمون جميعًا وهي أن كل مسلم لا همّ له في الحياة إلاّ رضا الله سبحانه ، ويعتقد أن رضاه تعالى يتحقق في الالتزام بما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله. وإذا كان ثمة اختلاف بين الفرق الإسلامية في الأصول فإنما يعود إلى

اختلاف المتكلّمين غالبًا، وإذا كان هناك اختلاف في الفروع فإنما يرجع إلى اختلاف طرق الحديث والى تعدد الاجتهادات. من هنا فان الأصل الذي يوحّدهم هو مثلهم الأعلى المتمثل في رضا الله، وفي الالتزام بالقرآن والسنّة.

هذه الحقيقة الهامة تتجلى بانصع صورها في شهر رمضان المبارك.

بقي أن نشير إلى حقيقة هامة أخرى هي أن المسلمين في أصقاع الأرض لا يبدأ يوم صومهم في ساعة واحدة ولا ينتهي في ساعة واحدة، لاختلاف أفق بلدانهم، كما أنهم لا يبدأ عيد فطرهم في ساعة واحدة لنفس السبب.

واختلاف الأصقاع يؤدي أيضًا إلى اختلاف في عادات الناس في هذا الشهر الفضيل وتقاليدهم. كل هذه الاختلافات في المواعيد وفي العادات والتقاليد هي طبيعية لا تتنافى مع وحدة هذه الأمة في الالتزام بنهج الإسلام في هذا الشهر الفضيل.

يبقى أن مسؤولية العلماء وقادة الفكر في العالم الإسلامي كبيرة لتصعيد روح الانتماء إلى الأمة الإسلامية وروح وحدة الأمة بكافة مذاهبها في هذا الشهر.

عليهم أن يركزوا على مفاهيم القرآن، في وحدة الأمة، وفي دعوته إلى الاعتصام بحبل الله، وفي نهيه عن التفرّق، فهذا الشهر هو شهر القرآن.

عليهم أن يكشفوا عن السيرة بما تضمنته من اهتمام

الرسول(ص) بمكافحة كل عصبية جاهلية قومية أو عشائرية، وبدعوته المستمرة إلى رص الصفوف وتوحيد القلوب، فهذا الشهر هو الشهر المفعم بمعالم السيرة النبوية الشريفة.

عليهم أن يكرسوا اهتمامهم في توجيه الأمة نحو مثلها الأعلى الواحد الحقّ.. نحو الله سبحانه وتعالى.. فهذا الشهر فيه ليلة القدر، وليلة القدر تسجّل قَدَر الفرد وقَدَر الأمة.

عليهم أن يواجهوا في هذا الشهر ما تستعدّ له الفضائيات المنحرفة من بثّ التحلل الخلقي والابتذال، وما تسعى إليه بعضها في تكريس الإثارات الطائفية في هذا الشهر بالذات.

إنّ الفضائيات التي توظف بثّها في هذا الشهر بشكل خاص لخلق الحزازات الطائفية وإثارة مواجهات عنيفة بين أتباع المذاهب الإسلامية تدرك جيداً، ويدرك مَنْ وراءها، بأن هذا الشهر قادر على توحيد صفوف المسلمين، لذلك تخطّط لمواجهة هذه الفرصة وتفويتها على الأمة.

ويبقى شهر رمضان يوفّر الفرصة لأن تتعالى الأمة على خلافاتها وتوحّد صفوفها، ويبقى المرجفون يواجهون هذه الفرصة وغيرها من الفرص وتحويلها إلى تحدٍ.. غير أن فطرة الأمة الإسلامية هي إلى الوحدة أشوق، والى التوحيد أقرب، ويأتي دور الكلمة المسؤولة لتنسجم مع طموحات الجماهير المسلمة في أمة واحدة موحّدة ذات دور رسالي على ساحة التاريخ. وما ذلك على الله بعزيز.

رمضان – والمقاومة

ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من الشهر الفضيل، هو أنه شهر الصبر على الجوع والعطش ومقاومة المغريات النفسية والجسدية. إنه إذن بالدرجة الأولى شهر المقاومة في حقل الجهاد الأكبر . وهذه المقاومة هي مظهر الكائن الحي.
الموجود الحي لا يمكن أن يطوي مسيرة تكامله إلاّ أن يكون مقاومًا، فإذا فقد المقاومة مات، لأن الجوّ مفعم بأنواع الميكروبات التي تفتك بالجسم.

المقاومة في الجسم مكتسبة بالوراثة وإذا فقدها ابتُلي بمرض العصر المسمى بالايدز، أما المقاومة في الفكر والروح والنفس، فليست مكتسبة تلقائيًا، بل يحتاج اكتسابها إلى معاناة ومِران، وشهر الصوم من أعظم فرص هذا المران على اكتساب المناعة النفسية والروحية والفكرية.

أمتنا بعد عصر أفولها الحضاري ضمرت فيها روح الحياة، وأصبحت معرضة لألوان الغزو في المجال الفكري والنفسي والروحي، وابتلي قطاع من مثقفيها وسياسييها بالإيدز في هذه المجالات، فأصبحوا لا يقامون الإغراء والبريق وشراء الذمم، فهزموا نفسيًا، وأصبحوا عونًا على أعداء الأمة.

وكـــــان الغـــــزاة يطمحـون إلى غـرس روح الهزيمـة هـذه في نفـوس كـلّ الأمـة، لكـن قـدرة الإسـلام علـى حفـظ روح المقاومة في نفوس أتباعه جعل الأمة تحقق انتصارات باهرة في شتى الجبهات وتبقى صامدة أمام التحديات.

ويحلّ علينا الشهر الفضيل كل عام ليشحذ الهمم والطاقات ويصعّد روح المقاومة بقدر ما في الأمة من وعي وقدرة على استثمار هذه الفرصة.

إذن يحتاج الأمر إلى توعية برسالة هذا الشهر والى حثّ لممارسة غرس روح المقاومة في نفوس الأمة.

مقاومة الأمة مهدّدة اليوم بأنواع التحديات:

الأول : العمل المكثف لإثارة الشهوات الجسديّة، في محاولة لأن ينسى الإنسان المسلم دوره في الحياة ومسؤوليته الرسالية على ظهر الأرض.

الثاني: غرس المعادلات الماديّة في الأذهان، بحيث تخلق قناعة بضرورة خضوع العالم الإسلامي إلى طغاة العالم والصهاينة المجرمين.

الثالث: إشاعة روح الذلة بين المسلمين، والذلة مقرونة بالهزيمة وفقدان الثقة بالنفس، بل بالموت.

الرابع: تشويه مفهوم المقاومة عن طريق اختراق فصائل المقاومة الحقيقيين، وخلط أوراقهم مع القتلة والإرهابيين والمجرمين.

الخامس: التشكيك في مقدرة الإسلام على إدارة المجتمع عن طريق بثّ الخرافات وإشاعة ثقافة عصور التخلف، وإثارة الصراعات المذهبية بين المسلمين.

وهذا الشهر فرصة لتوعية المسلمين على المعنى الحقيقي للمقاومة، لأن كل مسلم يمارس هذا المعنى بنفسه على مستوى محدود، فتتوفر الفرصة لانفتاحه على المعنى الواسع للجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.

الفرصة متاحة لبيان هدف المشروع الإسلامي الكبير وهو الإحياء: ﴿لما يحييكم﴾ وبيان معنى الإحياء الإسلامي، وضرورة المقاومة باعتبارها من أهم مستلزمات الحياة.

الفرصة متاحة لعرض ما قدّمه المسلمون في تاريخهم و واقعهم من صور المقاومة أمام الانحرافات والمغريات والغزاة.

فإلى ذلك فليعمل العاملون.

المثقفون والعبور

من الأيديولوجيا إلى الابستملوجيا

زكي الميلاد *

• الايديولوجيا تميل إلى معالجات للواقع العملي والابستومولوجيا تتجه نحو المعرفة النظرية • يحصل الانتقال إلى الايدولوجيا على أثر تقلبات اجتماعية عاصفة • ظهر هذا التحول في أوربا بعد الحرب العالمية الأولى وفي العالم العربي بعد نكسة حزيران • المقصود من التضخم الإيديولوجي سيطرة الرغبات والآمال والخيالات والمثاليات •الانقطاع بين الفكر والواقع يحصل بسبب ضعف البحث العلمي.

هناك مفارقة خارجة عن القياس، تكشف عن أنماط التحول في نظم الخطاب الناشئة من جدلية الفكر والواقع، أو احتكاك الأيديولوجيا بالمعرفة ـ الإبستملوجية (الابستمولوجيا: دراسة العلوم النقدية. فهي تدرس بشكل نقدي مبادئ كافة العلوم وفروضها ونتائجها). وكيف يحصل العبور والانتقال المتعاكس بينهما. أو كيف تفرض الأيديولوجيا هيمنتها وتتفوق من هذه الناحية على المعرفة الإبستملوجية في زمن، وفي زمن آخر قد تتغير هذه المعادلة وتتبدل، حيث تتراجع إرادة الأيديولوجيا وتتقدّم عليها من هذه الناحية إرادة المعرفة الإبستمولوجية.

---

* – باحث من المملكة العربية السعودية، رئيس تحرير مجلة "الكلمة".

لا شك أن هذا العبور أو التغلب من وإلى الأيديولوجيا والإبستملوجيا، لا يحصل في العادة بطريقة سلسة وطبيعية، ولا حتى بطريقة تدرجية أو تراكمية، وإنما يحصل في ظل لحظات تاريخية متقلبة وعاصفة، تتغير معها موازين النظر، ومنهجيات الفكر، واتجاهات الخطاب. وهي اللحظات التي تتعرض فيها الثوابت والكليات والجوهريات، إلى نوع من الاهتزاز والاختلال والاضطراب، وقد تنهار على أثرها فلسفات كانت مبجلة، وأعراف كانت راسخة، ونماذج كانت مقدسة. كما أنها اللحظات التي تفصل بين زمنين، بين زمن له شروطه ومكوناته وملامحه، وبين زمن آخر، تتغير فيه وتختلف تلك الشروط والمكونات والملامح.

ومن صور هذه المفارقة ما حصل لبعض المفكرين والفلاسفة الأوروبيين بعد الحرب العالمية الأولى، الحرب التي وضعت أوروبا أمام مصير الجحيم، وكانت بمثابة صدمة عنيفة أصابت الفكر الأوروبي في عمقه وجوهره، وقلبت معها اتجاهات المعرفة، وأولويات الاهتمامات الفكرية والفلسفية. وهذا ما حصل عند الفيلسوف الإنكليزي الشهير برتراند رسل، الذي كان مولعًا وضليعًا بالمنطق والرياضيات وفلسفة العلم، وهي الحقول التي جعلت من نظرته إلى العالم عبارة عن معادلات رياضية، ومدركات عقلية، وأنماط منطقية. وإذا به تتغير عنده هذه الاهتمامات، وتتشكل لديه أولويات مختلفة.

وقد عبّر رسل عن هذا التحول حينما قال: لقد تخليت عن فيثاغورس، لكي يعلن عن خروجه من عالم الفلسفة المتعالي، ومن

عالم الرياضيات البارد، إلى الانخراط في قضايا الشأن العام، ومناهضة الحرب، واقتحام عالم السياسة. حيث راح ينشر المقالات في الصحافة، ويلقي المحاضرات العامة، ودخل السجن بسبب ذلك، وصدرت له مؤلفات في هذا الاتجاه، منها: (الحرب سليلة الخوف) صدر عام ١٩١٥م، و(مبادئ إعادة البناء الاجتماعي وكيف نلغي المبارزة بين الأمم) صدر عام ١٩١٦م، وفي عام ١٩١٨م أصدر كتابين هما (سياسة الوفاق) و(العدالة في زمن الحرب). ففي لحظة تاريخية عصيبة، هي لحظة الحرب العالمية الأولى، تحوّل رسل من الإبستملوجيا إلى الأيديولوجيا، ليس تحولاً كليًا بالطبع، لأن التكوين الفلسفي والرياضي كان عميقًا ومتأصلاً في فكره وكيانه.

ويفارق هذه الصورة ويعاكسها، ما حصل عند بعض المثقفين والمفكرين العرب بعد حرب ١٩٦٧م، التي وصفتها الأدبيات العربية بالنكسة، تعبيرًا عن شدّة الصدمة التي أصابت الفكر العربي، وحرضت على مراجعات نقدية وبنيوية شديدة الجذرية والصرامة.

كان من نتائجها الالتفات إلى بعض جوانب الخلل في بنية وتكوين الفكر العربي، الذي تضخّم حسب رأي البعض أيديولوجيًا وفقرًا معرفيًا. وعبّر عن هذا الرأي، اتجاه مثّله بعض الأكاديميين العرب، الذي كان من السهل عليهم التوصل لمثل هذه النتيجة، بحكم تكوينهم الأكاديمي، وتعلقهم بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، وتفاخرهم بتمييز أنفسهم من هذه الناحية. ومن هؤلاء الدكتور محمد أركون، الذي اعتبر في ندوة (التراث

وتحـديات العصـر) - عقـدت في بـيروت عـام ١٩٨٥م أن طغيـان أيديولوجيا الكفاح على تقدير حقوق العلم واحترامها، أصبح في الفكر العربي الإسلامي المعاصر من أشدّ العراقيل المعرفية، وأخطر النتائج على مصيرنا.

وفي هذا النسق أيضًا، أشار الدكتور فهمي جدعان في كتابه (الطريق إلى المستقبل) الصادر عام ١٩٩٦م، إلى أن المعرفة الغائبة من كتابات المثقفين العرب على اختلاف مذاهبهم، هي أنهم لا يأبهون كثيرًا بالتأسيس العلمي المحكم لأفكارهم، ويكتفون بأقل المعطيات، ولا يمارسون البحث العلمي، ومعروفون حسب رأيه بتعجلهم في إصدار الأحكام، وبسرعة التعميمات.

لذلك يرى الدكتور محمد جابر الأنصاري، في كتابه (مساءلة الهزيمة)، أن الفكر العربي المعاصر، ما لم يتجاوز هذه الإعاقة، ويتخلص من طغيان الأيديولوجيا لصالح الإبستملوجيا أو البحث المعرفي العلمي والنقدي، فإنه لن يتمكن من الخروج بوعي الأمة من نفق الهزيمة التي تعاني منها، وهي تودّع قرنًا وتستقبل قرنًا آخر.

وحين يميّز المفكّر الفرنسي ألتوسير بين الأيديولوجيا والإبستملوجيا، يقول: إن الأيديولوجيا باعتبارها نسقًا من التمثلات، فهي تتميز عن العلم، من حيث إن وظيفتها العملية المجتمعية، تفوق من حيث الأهمية وظيفتها النظرية، أي وظيفتها المعرفية.

وقد يوحي هذا الكلام بتفوق الأيديولوجيا، وليس هذا هو

مقصد التوسير، لأن النتيجة التي يريد أن يصل إليها هي بخلاف ذلك، فهو يحاول الكشف عن مغالطات الأيديولوجيا، وادعائها الزائف بانتمائها واستحواذها على منطقة الوعي، وليس هناك تلازم حسب رأي ألتوسير، بين الأيديولوجيا والوعي، بل قد يحصل ما هو خلاف ذلك، لأن الأيديولوجيا كما يرى ألتوسير، هي توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية، تلك العلاقة التي تعبّر عن إرادة أو أمل وحنين، أكثر مما تصف واقعًا معينًا.

والمقصود من التضخم الأيديولوجي، هو أن تسيطر على الفكر مجموعة من الرغبات والآمال والخيالات والمثاليات، يتعلق بها من دون أن يمتلك القدرة على تطبيقها وممارستها، أو تطويع الواقع للاستجابة لها، والتناغم معها. وقد يتطور هذا الحال، إلى أن تصبح هذه التمثلات على حدّ وصف ألتوسير واقعًا افتراضيًا، يتشكل في عالم الأفكار والأذهان، ويكون بديلاً عن الواقع الفعلي المتحرك على الأرض.

هذا النمط من التضليل الأيديولوجي، قد يستمر إلى أن يصل لمرحلة، يحصل فيها الارتطام بين الأيديولوجيا بتركيبتها النمطية والذهنية، وبين الواقع بتركيبته المتغيرة والحسية.

هذا الانقطاع أو الاحتجاب بين الفكر والواقع، يحصل بسبب ضعف التكوين المعرفي والبحث العلمي، من هنا كانت الضرورة إلى الإبستملوجيا، لكي تتشكل الأفكار، وتتحرك على أساس المعرفة العلمية.

الإنسان والحيوان

مرتضى مطهري

• الذي يؤهل الإنسان إلى البناء الحضاري هو الادراكات والتطلعات • ادراكات الإنسان تتعدى ظواهر الأشياء لتنفذ إلى العمق • الإنسان بتطلعاته قد يندفع لخدمة الآخرين أكثر مما يخدم نفسه • العلم والإيمان أساس اختلاف الإنسان عن الحيوان • مسيرة الإنسان وا لمجتمع تبدأ من الحيوانية ثم تطوي مراحل تكاملها نحو الإنسانية.

الإنسان نوع من أنواع الحيوانات، ومن هنا فهو ذو صفات مشتركة كثيرة مع سائر الأحياء، لكنه يختلف عنها في أمور صيّرت منه موجودًا متميّزًا، ومنحته صفات سامية ينفرد بها بين الأجناس الحيّة.

الأمور التي تُميز الإنسان، وتمنحه صفة «الإنسانية» وتؤهّله لبناء «الحضارة» و«الثقافة الإنسانية» تعود الى: ١-الادراكات. ٢- التطلّعات.

الأحياء عامة تتّصف بالقدرة على إدراك نفسها والعالم المحيط بها، كما تتّصف بالسعي من أجل تحقيق احتياجاتها ومتطلباتها في ضوء مدركاتها.

والإنسان - مثل سائر الأحياء - ذو ميول ورغبات وتطلعات

يسعى إلى تحقيقها في ضوء اطلاعاته ومدركاته. غير أنه يختلف عن سائر الأحياء في سِعَة دائرة اطلاعاته ومعلوماته ومعارفه، وفي سمو رغباته وتطلعاته.

وهذا ما يميّز الإنسان ويمنحه صفة التعالي والسمو على سائر الأحياء.

دائرة مدركات الحيوان ومستوى تطلّعاته

تتميّز مدركات الحيوان عن العالم الخارجي بما يلي:

أولا: إنها سطحية وظاهرية، لأنها تتم عن طريق الحواس الظاهرة فقط.

ثانيًا: فردية وجزئية، أي تفتقد قدرة التعميم.

ثالثًا: محلّية أي إنّها محدودة ببيئة الحيوان ولا تتعدّى إطار تلك البيئة.

رابعًا: حالية، أي إنها ترتبط بالزمن الحاضر، ومنقطعة عن الماضي والمستقبل. فالحيوان لا يعي تاريخه وتاريخ العالم، ولا يفكّر بالمستقبل ولا ترتبط مساعيه بالمستقبل.

فالحيوان في مدركاته، لا يخرج إطلاقًا عن إطار الظواهر المادية، والفردية والجزئية، والبيئة، والزمن الحاضر. فهو سجين هذه الأطر الأربعة. وإن خرج أحيانًا، فخروجه ليس عن وعي وانتخاب، بل عن جبر طبيعي، وعن اندفاع غريزي يفتقد الوعي والشعور.

متطلبات الحيوان وتطلعاته، محدودة في إطار خاص أيضًا كمدركاته عن العالم، فهي:

أولا: مادية، إذ إنها لا تتعدّى حدود الأكل والشرب والنوم واللعب واتخاذ المأوى وإشباع الغريزة الجنسية. وليس للحيوان متطلبات معنوية ولا قِيَم خلقية.

ثانيًا: شخصية وفردية، أي ترتبط به، وقد تتعدى ذلك إلى الزوج والفِراخ على أكثر تقدير.

ثالثًا: إقليمية، لا تخرج عن إطار بيئته.

رابعًا: حالية، وترتبط بالزمن الحاضر فقط.

الحدود التي تؤطر إدراكات الحيوان هي نفسها تؤطر تطلعاته ورغباته.

وإن اتفق أن تحرك الحيوان نحو تحقيق هدف أبعد من هذه الحدود الأربعة، كأن يرتبط ذلك الهدف بالنوع لا بالفرد، أو يرتبط بالمستقبل لا بالحال، كما هو مشهود في بعض الحيوانات التي تحيا حياة جماعية مثل النحل، فإن تلك الحركة غريزية لا واعية، تتم استجابة لقوة أودعها فيها خالقها وخالق هذا العالم.

دائرة مدركات الإنسان ومستوى تطلعاته

هذه الدائرة أوسع من دائرة الحيوان على صعيدي المدركات والتطلعات معًا.

إدراكات الإنسان ومعارفه تتعدى ظواهر الأشياء، لتنفذ إلى أعماق ذاتها و ماهياتها، والى روابطها والضرورات المتحكّمة فيها.

إدراكات الإنسان غير محدودة بمنطقة أو مكان وغير مقيّدة بزمان، بل تشق عباب المكان والزمان، وتنطلق من رحاب بيئة الإنسان إلى رحاب بيئات أخرى بل إلى كواكب أخرى، وتفهم الماضي والمستقبل، وتكشف تاريخها وتاريخ العالم، أي تاريخ الأرض وما عليها وتاريخ الكواكب، وتتطلع إلى الآفاق البعيدة للمستقبل.

والإنسان لا يكتفي بهذا، بل يُحلّق بأفكاره في اللانهايات وفي القيم الخالدة، ويتعرّف على بعضها ويتجاوز حدود المعرفة الجزئية والفردية، ويكتشف القوانين الكلية والحقائق العامة للعالم، وعن هذا الطريق يفرض سيطرته على الطبيعة.

والإنسان يستطيع أن يرتفع بتطلعاته ومتطلباته إلى مستوى سام، فهو موجود يرنو نحو القيم والمُثُل والكمال. يتطلع نحو أهداف غير مادية وغير محدودة به وبزوجه وأبنائه، بل نحو أهداف عامة شاملة تستوعب جميع البشرية، ولا تتحدد ببيئة خاصة أو منطقة معينة أو برهة محدودة من الزمن.

الإنسان قد يبلغ بتطلعاته السامية درجة تفوق فيها قيم ما يتبناه من عقيدة وأهداف على سائر القيم، ويندفع لخدمة الآخرين أكثر مما يخدم نفسه، ويتألّم للآخرين أكثر مما يتألّم

لنفسه، ويفرح لفرح الآخرين ويحزن لحزنهم، وتتوثق علاقته بمُثُله المقدسة حتى يضحّي من أجلها.

الجانب الإنساني للحضارة البشرية الذي يمثل روح الحضارة، هو وليد مثل هذه المشاعر والتطلعات البشرية.

ملاك امتياز الإنسان

مدركات الإنسان الواسعة حول العالم حصيلة مساع جماعية بشرية تراكمت وتكاملت خلال القرون المتمادية. وهذه المدركات تحددت بضوابط وقواعد ومنطق خاص، واتخذت اسم «العلم».

والعلم، بالمعنى الأعم، هو مجموعة الأفكار البشرية عن العالم، بما فيها الأفكار الفلسفية، الناتجة عن المساعي الفكرية البشرية التي اتخذت نظامًا منطقيًا خاصًا.

التطلعات الروحية البشرية السامية وليدة الإيمان والاعتقاد والارتباط بحقائق عن هذا العالم تتصف بالعمومية والشمول (أي تسمو على الفردية)، والترفّع عن المادة (أي ليست من نوع الربح والمنفعة).

وهذا النوع من الإيمان والانشداد هو بدوره وليد بعض التصورات والنظرات العامة للكون والحياة، وهي إما أن تكون صادرة عن الرسل والأنبياء، أو أن تكون قد بشّر بها فلاسفة، استهدفوا نشر الأفكار الإيمانية المتسامية.

على أي حال، التطلعات الإنسانية المتعالية المعنوية المترفعة عن

المستوى الحيواني تكتسب اسم «الإيمان» عندما تقوم على أساس اعتقادي وفكري.

من هنا نستنتج أن «العلم» و«الإيمان» هما أساس اختلاف الإنسان عن سائر الأحياء، وهما ملاك «إنسانية» الكائن البشري.

الحديث كثر عما يمتاز به الإنسان عن الحيوان، بعضهم أنكر وجود امتياز أساسي للإنسان عن سائر الأحياء، وذهب إلى أن الاختلاف بين مدركات الإنسان والحيوان إنّما هو اختلاف كمي، أو كيفي على أفضل حال، لا اختلاف ما هوي. ولم يهتم هؤلاء بكل ما لفت أنظار فلاسفة الشرق والغرب من أهمية وعظمة وعجائب في مسألة المعرفة الإنسانية.

أصحاب الاتجاه المذكور، ينظرون إلى الإنسان في رغباته وتطلعاته على أنه مثل سائر الحيوانات دون أدنى تفاوت بينه وبينها.

وبعض آخر يرى اختلاف الإنسان عن الحيوان يتمثل في الحياة، ويعتبر الإنسان وحده ذا حياة، ويعتقد أن الأحياء الأخرى لا إحساس لها ولا رغبة ولا لذة ولا ألم، بل هي أجهزة متحركة تشبه الموجودات الحية. وأصحاب هذا الاتجاه يعرّفون الإنسان أنه موجود حي.

ولما كانت آراء العلماء مختلفة فيما يملكه الإنسان من امتياز عن سائر الأحياء، اختلفت أيضًا التعاريف الموضوعة للإنسان، فمنهم من قال إنه: حيوان ناطق، وقال آخرون: إنه حيوان ملتزم

ومسؤول وإنه حر ومختار، وإنه متمرد، وإنه خلاق، وإنه متخيل، وإنه يرنو إلى النظام.. وإنه يرنو إلى المُثُل، وإنه حيوان ميتافيزيقي.. و.. والى آخره من التعاريف التي وضعت للإنسان انطلاقًا من نظرات متباينة لما يميزه عن الأحياء الأخرى.

ومن الطبيعي أن كل واحد من هذه التعاريف صحيح في محله، غير أن التعبير الجامع للاختلافات الأساسية بين الإنسان والحيوان هو: إن الإنسان حيوان «عالم» و«مؤمن».

هل الإنسانية بناء فوقي؟

ذكرنا أنّ الإنسان نوع من أنواع الحيوان، وله صفات مشتركة كثيرة مع سائر الأحياء. وهو يملك أيضًا صفات أساسية تميّزه عن بقية الموجودات الحية.

اشتراك الإنسان مع الحيوان في مجالات معينة وامتيازه عنها في مجالات أخرى، جعلا للإنسان حياتين، حياة حيوانية وحياة إنسانية. وبعبارة أخرى، حياة مادية وحياة ثقافية.

وهنا تُثار مسألة العلاقة بين هاتين الحياتين: أي الحياتين أصل والأخرى فرع؟ أيهما أساس والأخرى انعكاس؟ أيهما تمثل البناء التحتي والأخرى البناء الفوقي؟

هذه التساؤلات تُطرح اليوم في حقل علم الاجتماع على النحو التالي:

هل القوّة الإنتاجية أصل وسائر المؤسسات الاجتماعية فرع لها وانعكاس عنها؟

هل الظواهر التي تتجلّى فيها إنسانية الإنسان مثل العلم والفلسفة والأدب والدين والقانون والفنّ والأخلاق، كلها مظاهر للواقع الاقتصادي؟

هذه المباحث الاجتماعية تجرّ إلى بحث فلسفي حول الإنسان وأصالته.

وأخيرًا طَلَعت علينا نظرية أصالة الإنسان أو الأومانية لتقول: إن إنسانية الإنسان ليست أصيلة إطلاقًا، بل الأصالة لحيوانيّته فقط. وأصحاب هذه النظرية يذهبون إلى نفس ما ذهب إليه المنكرون للفرق الأساس بين الإنسان والحيوان.

هذه النظرية ترفض أصالة النزعات الإنسانية، كالنزوع نحو الحقيقة والجمال والله. كما ترفض «واقعية» نظرة الإنسان إلى العالم، اذ لا تعتقد بوجود رؤية موضوعية واقعية، بل تعتقد أن كل رؤية هي انعكاس عن اتجاه مادي خاص.

ومن العجيب أن أصحاب هذه النظرية، يدّعون الإنسانية والنزوع نحو الإنسانية والأومانية، وهم يبشّرون بمثل هذه الأفكار التي تصادر إنسانية الإنسان!!

الحقيقة أن مسيرة الإنسان التكاملية تبدأ من الحيوانية وتطوي مراحل تكاملها نحو الإنسانية. وهذا المبدأ يصدق على الفرد والمجتمع معًا.

الإنسان، في بداية وجوده، جسم مادي، ويتبدّل بحركته الجوهرية إلى روح أو جوهر روحي. «روح الإنسان» تولد وتتكامل وتبلغ استقلالها في جسمه.

وحيوانية الإنسان بمثابة العش والوكر الذي «تنمو» وتتكامل فيه إنسانيته.

الموجود المتكامل – طبقًا لخصائص التكامل – يتّجه، كلّما تكامل، نحو السيطرة والتحكم في محيطه والاستقلال عنه. وإنسانية الإنسان تتجه كلما تكاملت – على الصعيدين الفردي والاجتماعي – نحو الاستقلال والسيادة على سائر الجوانب.

الفرد الإنساني المتكامل، موجود مسلّط نسبيًا على المؤثرات الداخلية والخارجية التي تحيط به.

الفرد المتكامل يعني الموجود، المتحرر من جبر الدوافع الداخلية والبيئية الخارجية، والمرتبط بالعقيدة والإيمان.

تكامل المجتمع يطوي مسيرته بهذه الصورة أيضًا، فنطفة المجتمع البشريّ تنعقد في المؤسسات الاقتصادية. والجوانب الثقافية والمعنوية تمثل روح المجتمع.

كما أن بين الروح والجسم تأثيرًا متبادلاً، كذلك الوضع بين المؤسسات المعنوية والمؤسسات المادية.

وكما أن المسيرة التكاملية للفرد تتجه نحو حرية الروح واستقلالها وزيادة هيمنتها، كذلك المسيرة التكاملية للمجتمع.

أي إن الحياة الثقافية للمجتمع تزداد استقلالا وسيادة على الحياة المادية كلّما تقدّم المجتمع في تكامله.

إنسان المستقبل - إذن - حيوان ثقافي، لا حيوان اقتصادي، إنسان المستقبل، إنسان العقيدة والإيمان والالتزام، لا إنسان البطن والفرج.

وهذا لا يعني طبعًا، أن المجتمع البشري يسير جبرًا وبالضرورة في كل خطواته على خط مستقيم نحو كمال القيم الإنسانية، ولا يعنى أن المجتمع الإنساني يقطع في كل مرحلة من مراحل حياته خطوة متقدمة ومتطورة بالنسبة لسابقتها. فمن الممكن أن يمرّ البشر بمرحلة اجتماعية يهبط فيها منحني تطوره الإنساني بالنسبة للمراحل السابقة، وهذا ما يقال عن البشرية المعاصرة على الرغم من كل ما حققته من انتصارات في مجالات التقنية!

.. بل يعنى أن الخط العام لحركة البشرية يسير نحو التطوّر ماديًا ومعنويًا، وهذا ما نعنيه بالمستقبل المشرق للإنسان.

إنسان الماضي - بموجب هذه النظرية - كان قليل الحظ في الاستفادة من مواهب وجوده ومن مواهب الطبيعة، لكنه كان يعيش في أسر الطبيعة وفي أسر حيوانيته. وهو في المستقبل سيستثمر مواهبه ومواهب الطبيعة،وبذلك يتحرر نسبيًا من أغلال الطبيعة ومن أغلال نزعاته الحيوانية ويزداد سيطرة عليها.

واستنادًا إلى هذه النظرية، إنسانية الإنسان - مع أنها تبرز

جنبًا إلى جنب مع تكامله المادي والحيواني - لا تعتبر تابعًا لتكامله المادي ولا انعكاسًا عنه.

إنسانية الإنسان واقع أصيل مستقل متكامل يؤثر في الجوانب المادية كما يتأثر بها. والذي يقرر المصير النهائي للإنسان هو تكامل جانبه الإنساني الأصيل لا تكامل وسائل الإنتاج.

واقعية إنسانية الإنسان الأصيلة هي التي تستمر في حركتها، وتُطوِّر كل شؤون الحياة بما في ذلك وسائل الإنتاج، لا العكس!

من أذكار شهر رمضان

أللهمَّ هذا شهر رمضان الّذي أنزلت فيه القرآن هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان. وهذا شهر الصيام. وهذا شهر القيام. وهذا شهر الإنابة. وهذا شهر التوبة. وهذا شهر المغفرة والرّحمة. وهذا شهر العتق من النّار والفوز بالجنة. وهذا شهر فيه ليلة القدر الّتي هي خير من ألف شهر. أللهم فصل على محمد وآل محمد وأعني على صيامه وقيامه، وسلمه لي وسلمني فيه، وأعنّي عليه بافضل عونك، ووفقني فيه لطاعتك وطاعة رسولك واوليائك صلى الله عليهم، وفرغني فيه لعبادتك ودعائك وتلاوة كتابك، وأعظم لي فيه البركة، وأحسن لي فيه العافية، وأصحّ فيه بدني، وأوسع فيه رزقي، واكفني فيه ما أهمّني واستجب فيه دعائي وبلغني فيه رجائي .

السمات العامة لفكر الشهيد مرتضى المطهـري

عبدالكريم الأشتر*

• المطهري أعلى الإسلام فوق المذاهب • هذا المفكر صاحب ذهن خصب مولّد، يفتق الأفكار ويركب منها أبنية فكرية جديدة • فكر الشهيد مطهري فكر نقدي جريء • دعوة الإسلام في رأي مطهري هي دعوة إلى الحياة والى خلق المجتمع المتكافل • فكر الرجل إصلاحي يرمي إلى النهوض بحياة المسلمين • التعليم صفة لازمة من سمات فكره • أحسن مطهري في فهم ثقافات عصره ليسخرها في الكشف عن قدرة الإسلام.

– ١ –

القصد من هذا الحديث أن نلم بأبرز السمات الفكرية العامة التي تتجلى لقارئ هذا المفكر المؤمن (مرتضى المطهري).

وأحب أن أبدأه بأربع ملاحظات:

الأولى: هي هذه الجفوة المفتعلة التي تقارب الانقطاع بين مذاهب الفكر الإسلامي. فإن المثقفين من أهل السنة لا يكادون يلمون إلمامًا سليمًا بالفكر الإسلامي الشيعي، ولا يكادون يعرفون رجاله معرفة صحيحة. وقد نتج عن هذا إحساس عميق بالغربة،

* – أستاذ جامعي سوري.

تحولت أحيانًا إلى ما يشبه القطيعة الفكرية بين المذهبين. وتكونت لكل منهما مكتبة خاصة يكاد الناشئون من أهلها لا يعرفون شيئًا عن مكتبة المذهب الآخر، وكتبها ورجالها.

زرت يومًا دارًا لنشر التراث الإسلامي، تراث أهل البيت، في مدينة قم، وتصفحت بعض ما تنشره، وراجعت مصادر تحقيقه، فرأيتها تقرب، في فتور كبير، من مصادر أهل السنة. إن مفكرًا عظيمًا من مفكري الإسلام، كالشهيد المطهري، استطاع أن ينقل الفكر الإسلامي إلى مستوى الدعوات العالمية في هذا العصر، يمكن أن يظل بعيدًا عن مفكري أهل السنة. وإن مفكرًا عظيمًا من مفكري الإسلام كمالك بن نبي مثلاً، الذي تفحص واقع المسلمين وعرّاه تعرية جريئة، وعمّق درسه للركائز الفكرية في حضارة الغرب، يمكن أن يظل بعيدًا عن مفكري الشيعة.

ثم إن الباحثين من الطرفين، نتيجة لهذا، أصبحوا، إذا نظروا في تراث الطرف الآخر، ضحايا الوقوع في أخطاء كبيرة، إذ يجدون أنفسهم يسبحون في مياه لايعرفون عمقها ولا يعرفون منابعها إلا بالقدر الذي أهّلتهم له معرفتهم بتراث الطرف الآخر.

والملاحظة الثانية: أن الندوات والبحوث والدراسات والأحاديث، ينبغي أن تفهم الغاية منها فهمًا صحيحًا أيضًا. فالغاية أن يقترب بعضنا من بعض، ويطلع بعضنا على دخائل بعضنا الآخر، لنيسر السبيل إلى فهم أنفسنا فهمًا أفضل، وتفحّص واقعنا، والوقوف

على أدوائه وطبّه. ما أعتقد أن أناسًا منا يمكن أن يظنوا أن في الإمكان أن ينتقل طرف منا إلى المواقع الفكرية للطرف الآخر. ولكن أحدًا منا لا يظن أبدًا أن الأقدار كتبت علينا أن نسير، إلى نهاية الزمان، في خطين متوازيين: فنحن، في النهاية، نؤمن بكتاب واحد. ونرجع، في الجملة، إلى مصادر تشريع واحدة. ويجمعنا تاريخ واحد، وواقع واحد. وينتظرنا، مهما تباعدنا، مصير واحد. إن كلّ من يسير في العالم الإسلامي، ويدخل مساجده، ويصلي مع المصلين فيه، ويطوف بأسواقه وحوانيته، ويزور بيوته، ويأكل طعامه، ويتحدث إلى أهله، يدرك، على نحو لا أستطيع وصفه، أنه لو مدّ يده أوشك أن يلمس جدران بيته الذي نشأ فيه.

فمن هنا يكون لتدارس أفكار الشهيد المطهري معناه الخاص. فهذا رجل أعلى الإسلام، في جملة دراساته، فوق المذاهب. وارتفع في درس مُثله وشرائعه وتعاليمه، ورفعنا معه، إلى مستوى إسلامي جامع يستشرف فيه الفرد المسلم أفق الإسلام الفسيح. يكفي أنه كان يدعو إلى أن تدخل إيران درس اللغة العربية، لغة القرآن، في مناهج الدراسة، منذ المدرسة الابتدائية. إذ كيف يتيسر، في رأيه، للمسلم الذي يريد أن يفهم روح الإسلام، أن يصل إلى مايريد، على غير معرفة بلغته التي أنزل بها كتابه؟

الملاحظة الثالثة: أن الرجل الذي نذكره ، وندرس فكره، استطاع أن يرقى بسلوكه وفعله إلى مستوى المثال الذي تمثله،

والمبدأ الذي آمن به. فهذا هو الامتحان العسير الذي يسقط فيه كثير من قادة الفكر، على مدى التاريخ. وهو المعيار الصحيح الذي يزن قدر رجاله في كل عصر. وهو الذي وصل به إلى مرتبة الأستاذية المطلقة، وانتهى به، آخر الأمر، إلى مرتبة الشهادة.

الملاحظة الرابعة: أن هذا الرجل انطلق، في دراساته كلها، من إيمان مطلق بكتاب الله، وحكّمه في قضايا الفكر التي عالجها. وجعله معيار كل حقيقة أقرّها، مهما يكن موضعها من مسائل الفكر الإنساني، وتاريخ شعوبه. ولكنه، مع هذا، كان يجهد أن يركن دائمًا إلى العقل وينفذ إليه، بعيدًا من المسلمات الدينية التي يختلف الناس فيها، ثم يعود في النهاية إلى كتاب الله، فتضيء آياته في يديه بنور جديد، ما أشد ما نفتقده في كثير من بحوث الفكر الإسلامي، في هذا العصر الذي نمت فيه الثقافات الإنسانية، على اختلاف علومها، وتدفقت على الناس كشوفها المذهلة. إن هذا لا يعني أبدًا أن كثيرًا مما أقرّه يمكن أن يقتنع به جميع الناس، على اختلاف مشاربهم ومواقفهم من الدين وأحكامه. ولكن المطهري يظل، في النهاية، مفكرًا دينيًا معاصرًا، يجد فيه المثقفون المسلمون، على وجه الخصوص، ما يقوى به إيمانهم بالله الواحد، وبتراثهم الديني العريق، وبمثله وأهدافه الإنسانية، وينفي عنهم كثيرًا من الأوهام التي دسّها المغرضون على الإسلام، وتقوى به ثقتهم بأنفسهم، وبما اختاروه لها، في

مواجهة تيارات الثقافات العالمية، والأفكار التي تأتي بها فلسفاتها ومذاهبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مثل المادية والوجودية والليبرالية وغيرها.

- ٢ -

لا يستطيع، في كل حال، من يرجع إلى التراث الذي خلفه المطهري، مهما يكن موقفه من الدين وأحكامه، ومن الإسلام خاصة، من أي مذهب كان، وعلى أي جبهة من جبهات الفكر الإنساني يقف، وإلى أي صف من صفوف السياسات والأنظمة المعاصرة، ينحاز، أن ينكر أن هذا المفكر الإسلامي صاحب ذهن خصب مولِّد، يفتق الأفكار، ويلقح بعضها ببعض، ويركب منها أبنية فكرية جديدة تدعم رأيه وتصوّب تحليله. وقد يبلغ من قوة التحليل أحيانًا أن تتفرّع المسائل في يديه، في خطوط كثيرة يسوق القارئ سوقًا إلى تتبعها وملاحقة تفرّعها.

لقد استجلب، مثلاً، وهو يحلل أفكار الفيلسوف الألماني المادّي (فويرباخ Feuerbach . ت ١٨٧٢م) في نشأة الدين «بسبب تغرب الإنسان عن نفسه» كما يقول، استجلب استنتاجًا من القرآن الكريم يوحي «بأن الإنسان يعاني أحيانًا من حالة يشعر فيها أن فاصلة تفصله عن نفسه». ويصل بينه وبين الآية الكريمة التي تقول: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم﴾. ويَرِد عليه هنا أن الفلاسفة المسلمين تنبهوا إلى هذا الموضوع، وتعمقوا بحثه.

ويقوده هذا إلى مراجعة أساس التصوف والعرفان، المبني، كما يقول: على التفريق بين النفس الحقيقية والأنا الحقيقية وبين النفس والأنا الخياليتين، أي شقّ أستار النفس والأنا الخياليتين لبلوغ الأنا الحقيقية. ويذكّره هذا بالمثل الذي يضربه الشاعر الفارسي (مولوي) في بعض شعره، عن خطأ الإنسان في التمييز بين جانبه الروحي المعنوي، وهو جانبه الحقيقي، كما يقول، وبين جانبه المادي. ويردّه قول (مولوي)، من جديد، إلى القرآن وآيته الكريمة ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾. ويولّد منها فكرة التلازم بين العثور على النفس والعثور على الله، ويصل بينها وبين الحديث القائل: «من عرف نفسه عرف ربه». ويقرر بعدها أن القرآن لا يفصل بين معرفة النفس ومعرفة الله، وأن قضية التغرب والغربة مع النفس، في نهاية المطاف، ليست جديدة على المسلمين والمعارف الإسلامية، بل هي، كما يقول: «تبدأ من القرآن وتسير، منذ أكثر من ألف سنة، في مسار خاص».

ويقف هنا ليتحول إلى بحث نقدي في مسألة الاغتراب عن النفس، في الفلسفات الغربية، منذ(هيجل Hegel . ت ١٨٣١)، فيأخذ على الماديين أنهم ينكرون وجود النفس من ناحية، ويتحدثون عن الاغتراب عنها من ناحية أخرى!

ثم يعود إلى «فويرباخ» فينقل رأيه في حتمية غروب شمس الدين، مع ازدياد معرفة الإنسان بنفسه، بعد أن جعلت اليهودية

الإلـه شـبيهًا بالإنسـان، وجعلتـه المسـيحية أقـرب إلى الإنسـان، وأظهرته للعيان بصورة الإنسان. ثم يأخذ في نقده مرحلة مرحلة، علـى أسـاس تـاريخي أولاً، وعلـى أسـاس فكـري فلسـفي مـن بعـد، يُظهـران تناقضـه ونقصـه في تفسـير ثنائيـة الإنسـان في فلسـفة «فويرباخ». ويعود إلى واقع البشرية فيستشهد به في أن قسمًا منها «ظل دائمًا على نبله وشرف أصالته الإنسانية»، وهو القسم الذي ظل يؤمن بالله وبالدين وأصوله. ثم يطلق، في النهاية، حكمه على مجمل النظرية قائلاً: «تلك، على كل حال، نظرية منسوخة»، لينتهي في آخر الأمر، إلى إثبات أن الدين «هو فطرة الله التي فطر الناس عليها».

الذي أريده من سوق هذا المثل الطويل أن أمثّل لخصوبة هذا الفكـر وقدرتـه علـى التوليـد واسـتجماع الأفكـار في وقـت واحـد، للوصول، في النهاية، إلى أبنية فكرية (أحكام) جديدة ومتماسكة. وسـينفعنا اسـتذكار هـذا المثـل مـن بعـد في اسـتخلاص بعـض السمات الأخرى في فكر المطهري.

فعلى هذه الشاكلة نجده يحلق، في بحوثه ودراساته، في آفاق الشرق والغرب. ويطوف بالفلسفات القديمة والحديثة. وينقل آراء رجالهـا. ويتصـدى للأنظمـة السياسـية والاجتماعيـة المختلفـة، ويواجهها بالنظام الإسلامي، ويثبت قدرته على توهينها أو نقضها، بما يحقق لهذا الفكر صفة العالمية، بمعنى اتصاله بالفكر العالمي شرقًا وغربًا، سعيًا منه إلى وضع الإسلام، كنظام للحياة الكاملة،

في مواجهة الأنظمة الأخرى في العالم.

وعلى هذه الشاكلة أيضًا تتحقق لهذا الفكر الإسلامي صفة المعاصرة التي يفتقدها، أحيانًا كثيرة، دعاته من مختلف المذاهب، ويخسرون، في افتقادها، كثيرًا من قدرتهم على إقناع الناشئة من المثقفين وطلاب المعرفة، على وجه الخصوص.

- ٣ -

وبهذه الصفة، في فكر المطهري، يتصل انفتاحه على الواقع الإسلامي، في شتى دياره، ووقوعه على أمسّ الموضوعات بمعاناته وإشكالاته، حتى لتسدّ كتبه ورسائله، في هذا الجانب منها، ثغرًا ما تزال مفتوحة فيه، على نحو ما نجد في موقفه من مسألة الزهد، وتمتع المسلم بلذات الدنيا. فالزهد، كما يرى، من المفاهيم الإسلامية السامية البناءة التي انحرفت في أذهان المسلمين. والإسلام، كما يقول، «يرفض أي انفصال بين العمل الدنيوي والأخروي، ويُدخل نشاط الإنسان في الدنيا ضمن العبادات مادام صاحبه يستهدف فيه خدمة الصالح العام. وينفي أن تكون هناك لذة محرمة مادام المتمتع بها يقف عند حدود الله». فدور الزهد في الإسلام هو في خلق روح التكافل الاجتماعي. فإذا أخذ به الحاكم المسلم خلق في المجتمع معايير لتقويم الأفراد، لا ترتبط بالمال والمتاع. وهذا الذي يحققه وصف نبي الإسلام بخفة المؤونة: «كان خفيف المؤونة». وعند هذه المعادلة بين التمتع والزهد، يلفت المطهري نظر الناس عن «الانغماس في تلبية حاجات الجسد

المادية، لأنه يُغلظ الحس ويضخمه، ويغلق منافذ المشاعر الإنسانية»، إلى اللذات المعنوية مثل لذة الدعاء، ولذة الاتصال بالله، ولذة التضحية، ولذة طلب العلم والتفكير والعطاء.

ومن هذه الوجهة يبدو فكر المطهري فكرًا نقديًا جريئًا، لا يبالي أن يقتحم على المسلمين مواطن الضعف ويعرّيها، حاكمين ومحكومين على السواء. إن العيب في ما يعاني منه المسلمون اليوم – كما ينقل عن الشاعر الباكستاني محمد إقبال – يكمن في المسلمين لا في الإسلام: «الإسلام حي، بل هو مبعث حياة. والعيب في فكر المسلمين وفي فهمهم الجامد الميت للإسلام. إن الإسلام لم يمت، ولكن المسلمين هم الذين ماتوا. وهم في حاجة إلى نفحة قدسية تحييهم، وتعيد إليهم دورهم الرسالي على الساحة التاريخية».

«إن حياة المسلمين اليوم تبرز الصورة المشوّهة المضحكة للإسلام الممسوخ، فقد انقلبت فيها الموازين والمفاهيم والضمائر. فليس غريبًا إذن أن يفتقد الإسلام قدرته على التأثير والعطاء، وعلى الدفع والتحريك والتوعية».

إن دعوة الإسلام، كما يقول المطهري، هي دعوة إلى الحياة، وإلى خلق المجتمع المترابط المتكافل المتضامن. فأين المسلمون اليوم، كما يقول، من هذا الترابط العضوي؟ هل يقف المسلمون اليوم، كما يقول «على مستوى المسؤولية من قضية فلسطين؟ هل يجسّدون، في موقفهم، قول رسول الله: من سمع مسلمًا ينادي يا

لَلمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم»؟ «إن كل إنسان مسلم واع (يقول المطهري) يرى أجزاء العالم الإسلامي تتعرض لأبشع أنواع المجازر الوحشية، ولأفظع انتهاكات الحرمات الإنسانية، دون أن تظهر على المسلمين آثار المواساة والتجاوب العاطفي والعملي! بل الذي يزداد ظهوراً فيهم: اتجاههم نحو المزيد من الشقاق والنفاق والعداء».

وقد وصل المطهري، في نقده، إلى أن يعمّ به المسلمين من مختلف المذاهب، وفيها مذهبه، فحقق هذا لفكره صفة النزاهة والموضوعية في أخص ما يؤخذ على كثير من الدعاة، في كثير من الأحيان.

- ٤ -

فكر المطهري إذن فكر إصلاحي، يرمي إلى النهوض بحياة المسلمين وبالمجتمع الإسلامي، على أساس التمسك بحبال العقيدة الصافية، عقيدة التوحيد المطلق، والعودة إلى جادة الإسلام الحي، ونفي مظاهر الموت التي رافقت مسخ المفاهيم الإسلامية الأصيلة في المجتمعات الإسلامية. لقد كان يدرك أن الدين على إطلاقه، وفي مجمل معانيه، يقابل في هذا العصر تحدياً صعباً. فاتجه في بحوثه الفلسفية إلى إثبات أن الدين الذي يعني، في نهاية أمره، الإخلاصَ لله والصدق في عبادته، هو غاية الحياة الإنسانية وهدفها السامي. ذلك أن الإيمان في ذاته هدف، لأنه يعني ارتباط الإنسان بالحق. والارتباط بالحق في نظر

الإسلام كمال. والعبادة العليا هي وسيلة لارتباط الإنسان بالله. وليست وسيلة لارتباط الإنسان بالأشياء الأخرى. فمفهومها يساوي مفهوم العشق للحقيقة. وهذا يعني أن الله ليس وسيلة حتى لحياة الإنسان في الآخرة. بل هو، في ذاته حقيقة، وفي ذاته مطلوب حقيقي. «ليس الجمال هدفًا، كما يقول، ولا العدالة هدف، ولا المحبة هدف. بل الهدف هو الله والحقيقة لا غير ولاغير». ذلك هو هدف الحياة السامي ومعنى الكمال الإنساني في الإيديولوجية الإسلامية، كما يقول.

ولهذا الغرض الإصلاحي أيضًا، اتجه في بعض بحوثه إلى الدفاع عن الإسلام، في وجه الدعوات الأخرى. وبحث في تخلف المسلمين وتصحيح المفاهيم السائدة في أذهانهم، مثل الاستهانة بالعمل، والركون إلى أوهام الاعتقاد بالحظ والعبثية، وإلى التواكل والتفريق بين الإيمان والعمل الذي نادت به المرجئة منذ العصر الأموي.

وحفزه هذا المطلب العزيز إلى إلقاء الدروس والمحاضرات في جماهير الناس، على اختلاف مراتبهم الفكرية، حتى أصبح التعليم سمة ملازمة من سمات فكره أيضًا. وكان يستعين في بعض دروسه المبسّطة بالأمثلة الحية ينتزعها من واقع الناس، وبالحكايات الطريفة، وينوّع أساليب الخطاب، فيختار لكل جماعة اللغة التي تناسب مداركها العامة.

من هنا نجد في تراثه الخطبة والمحاضرة والمناقشة والتأليف.

فمن يقرأ كتبه المؤلفة مثل «المجتمع والتاريخ» الذي نقد فيه النظرية الماركسية المادية في تفسير التاريخ، وكتابه الآخر «العدل الإلهي» الذي بسط فيه تفسير الإسلام للحياة والكون، والخير والشر، والثواب والعقاب، واختلاف الكائنات والموجودات، يدرك أي مرتقيات فلسفية عالية ارتقاها هذا الفكر.

ومن يقرأ كتاب «الفطرة» الذي انتهى فيه إلى أن الدين خالد لأنه مركب في الطينة المفطورة المتطلعة دائمًا إلى المبدأ والمعاد، وكتابه «معرفة القرآن» الذي وقف فيه على كليات كتاب الله ومفاصل دعوته الموحّدة، وجنح فيه إلى تفسير الآيات التي اختارها، على نحو خاص متسق مع أغراض الكتاب. من يقرأ مثل هذه الكتب يدرك أن المطهري اتجه فيها إلى أوساط المثقفين.

ثم إن من يقرأ رسائله الصغيرة كرسالة «الدعاء» و«التفكير في التصور الإسلامي» و«إحياء الفكر في الإسلام»، يدرك أنه خاطب فيها جمهور المتعلمين والطلاب.

على أن المطهري، في هذه البحوث والدروس والمحاضرات والمناقشات، يظل يجول في أفقه الخاص، ويحتفظ بجلال فكره وقوته ونفوذه، وإن اختلفت أساليب التأدية، مما يمكن أن تستخلص منه سمة أخرى من سمات هذا الفكر، وهي صفة المرونة التي مكنته من الوصول إلى عقول الناس، بأرفع الأفكار، على اختلاف مراتبهم.

مجمل ما ننتهي إليه في هذا الحديث: أن المطهري صاحب فكر إسلامي عميق متحرر، في بحوثه، من قيد الجنس أو المذهب، وإن لم يتخل عنهما. وهو يحتكم فيها إلى العقل وإلى الواقع وإلى مجموع مكونات الشخصية الإنسانية. وتردفه ثقافات إنسانية غنية ومنوعة: فلسفية واجتماعية ونفسية وتاريخية وفقهية ولغوية وأدبية، واطلاع على جملة من قوانين العلوم التجريبية كالفيزياء والفلك. وقد أحسن هضم هذه الثقافات وتسخيرها في الكشف عن قدرة الإسلام الخارقة على بناء الشخصية الإسلامية المكتملة، في نظرتها العامة إلى الكون وخالقه، والإنسان وغايته المثلى من الحياة، وعلى بناء المجتمع الإسلامي على أسس العدل الإلهي الذي يعني أن العلاقة بين الإنسان وأخيه هي علاقة الشركة والتعاون، وأن التدرج في مراتب الوجود يتطلب نوعًا من الاختلاف بينها في النقص والكمال، والشدة والضعف. وتعني أيضًا أن السيادة والملك في الأرض لله وحده، وأن الإنسان هو خليفته فيها وحامل أمانته إليها. وهي تعني العمل على إيصال الموجودات إلى كمالها وغاياتها، بعد أن دفعها الله من العدم إلى كمال الوجود.

ثم هو فكر نقدي إصلاحي مخالط لواقع المسلمين، قريب جدًا من أسباب معاناتهم وتخلفهم، متجه إلى تصحيح مناهج تفكيرهم، وتقويم المفاهيم الخاطئة فيه، ودرْس حركات الإصلاح

الإسلامية ونقدها (كالوهابية والبهائية والأتاتوركية والدكتاتوريات العسكرية في بعض الأنظمة الإسلامية)، داع إلى الحركة ونفي السكونية، وإلى إعادة اللحمة بين الإيمان والعمل، وإلى الثقة بالنفس وبقدرات الثقافة الذاتية الأصيلة على النهوض بحياتهم إلى المرتبة الإنسانية اللائقة بموقع حضارتهم من حضارات العالم.

وهو، بهذه المثابة، فكر اقتحامي، ثوري في بعض جوانبه، لا يبالي أن يُعمل معوله في أكثر الأنظمة السياسية القائمة في العالم الإسلامي، وينال من الدائرين في فلكها، والناطقين بأهوائها، والمدافعين عن سياساتها، والساكتين المؤثرين للعافية، ممن يُسمّون رجال الدين. ففي دعوته إلى إحياء الفكر الإسلامي منهجان، كما يقول:

– منهج سلبي يقوم على اقتلاع المفاسد وإماتة البدع لتمهيد الأرض.

– ومنهج إيجابي يقوم على تقديم مفهوم الإسلام الصحيح للناس، في شتى مناحي الحياة، وإحياء لسننه.

وهو ما يجلوه تراث المطهري كله.

فهو إذن، في النهاية، فكر يؤمن بالإصلاح الشامل الذي يعيد تكوين الشخصية الإسلامية القادرة على تحقيق المثل الإسلامي، لا الإصلاح الترقيعي الذي يذهب، في النهاية، بحقائق الإسلام.

وغاية مايثير الإعجاب في هذا الفكر: اللحمة التي حققها صاحبه بين القول والعمل. فقد ظل يجاهد بهما معًا في الساحة حتى انتهى فيها إلى الشهادة. وهي، في النهاية، أقوى حجة يدلي بها الصادقون من رجال المبادئ.

وتبقى صفات أخرى لفكر الرجل يمكن أن تستخلص مما قدمناه، مثل الدقة التي تبين، أقوى ما تبين، في التمييز بين المصطلحات، وفي فهم النصوص وتقليبها واختيار المفردات المناسبة في شرحها وتوضيح مقاصدها. وصفة الوضوح التي تبين، أقوى ما تبين، في اختيار الأساليب المناسبة لتقديم أفكاره إلى الناس، حسب مراتبهم الفكرية، دون أن يضحي بجوهرها، أو يقع في ترقيقها أو تسطيحها، على نحو ما فعل في توضيح فكرة الجدلية بين الفكر والواقع.

* * *

إن غاية ما أراده المطهري، في مجموع تراثه وعمله: أن ينتفض العالم الإسلامي عن حقائقه الراقدة في الأعماق، ويقدم للعالم أسلوبًا آخر، غير أسلوب الغرب، في فهم الحضارة الإنسانية ومكان الإنسان منها ومن الكون جملة، على أساس إسلامي يعيد صلة الأرض بالسماء، ويقيم حكم الله فيها، ويوضح معنى خلافة الإنسان لله، ومعنى الأمانة التي حمّله إياها.

ابن نباتة السعدي

عبداللطيف عمران*

هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة السعدي، تنقل بين حلب والموصل وبغداد والري، ومدح الملوك والوزراء، ففي حلب مدح سيف الدولة الحمداني، وفي بغداد مدح عضد الدولة البويهي، ويمكن أن يكون قد مدحه في شيراز، كما مدح ابن العميد حين قصده في الري ومدح الوزير المهلبي. ولد سنة ٣٢٧هـ، وتوفي ببغداد سنة ٤٠٥هـ شاع ذكره، وانتشر شعره وطبع ديوانه، ذكره صاحب تاريخ بغداد، وصاحب وفيات الأعيان، وصاحب مفتاح السعادة، كما ذكر أشعاره وأخباره التوحيدي والثعالبي في مؤلفاتهما، ويذكران أن اسمه عبد العزيز بن محمد.

طرق أغراض الشعر وموضوعاته جميعها، وغلبت قصائد المدح في ديوان شعره، ولعل أول مدائحه كانت في سيف الدولة الحمداني، فقد عدّ من خواص جلسائه وشعرائه، وله شعر جميل في العتاب والنسيب والفخر وشكوى الزمان، وهو يذكر هذا ويفاخر به، يقول:

---

* – أستاذ جامعي سوري.

وكـم للّيـل عنـدي مـن نجـوم جمعـت النثـر منهـا فـي نظـامي

عتابًـا أو نسـيبًا أو مـديحاً لخـل أو حبيـب أو همـام

تفيد بهـا العقـول نهى وصحـواً وقد فعلـت بهـا فعـل المـدام

ولو لم يكن حسن الشعر، ذائع الفضل، لما استطاع أن يتقدم في بلاط سيف الدولة الحمداني وفيه كبار شعراء الزمان من أمثال المتنبي وأبي فراس الحمداني والسرّي الرفاء، والوأواء الدمشقي، والخالديين..الخ، فكانت منزلته ومنزلة شعره راقية مرموقة بين الخاصة والعامة، مدح سيف الدولة وتغنى ببطولاته وبأمجاده في صراعه مع الروم، فقال في بعض قصائده فيه:

سيوفك أمضي في النفوس من الردى وخوفك أمضى من سيوفك في العدا

فتـى يتجـافى لـذة النـوم جفنـه كـأن لذيـذ النـوم عـن جفنـه قـذى

أطرفـك شـاكٍ أم سـهادك عاشـق؟ يغـار علـى عينيـك مـن سـنة الكـرى

ومـن سـهرت فـي المكرمـات جفونـه وعـن طرفـه فـي جوهـا أنجـم العـلا

فليس ينـام القلـب والجفـن سـاهر ولا تغمـد العينـان والقلب منتضى

وإذا كانت تلك مدائحه في سيف الدولة، والشاعر في ريعان شبابه فمن المعروف أن سيف الدولة توفي في سنة ٣٥٦ هـ، فكيف يكون شعره في عضد الدولة البويهي الذي دخل بغداد بعد ما يقارب عقداً من السنين، حيث يصقل مضي الأيام موهبة الشاعر؟

لقد سلك عضد الدولة البويهي في بغداد، وقبلها في شيراز، السبيل نفسه الذي سلكه من قبل سيف الدولة الحمداني، فكانا

فارسي السيف والقلم، يخوضان من جهة غمار الوغى، ومن جهة أخرى ينشطان إلى مجالس الأدب والفكر، فيقربان الأدباء والعلماء، وقد بين ابن نباتة حال عضد الدولة هذه فقال يمدحه:

سلمت على عثرات الزما ن يا عضد الدولة المنتخب

ولا زلت ترفع من دولة تواضعت فيها بهذا اللقب

قسمت زمانك بين الهمو مِ تنعم فيها وبين الدأب

فيوما تمير عفاة النسور ويوما تمير عُفاةَ الأدب

وحين وصل الشاعر إلى بلاط عضد الدولة البويهي كان نجمه قد سطع وسما، وكان ذكره قد شاع وعلا، فمدح قبله الملوك والوزراء، ثم نظم فيه شعرًا جميلاً، وطّد منزلة شعره بين الخاصة والعامة، فاهتم النقاد بشعره، وأقر التوحيدي بسمو موهبته،وبأصالة طبعه فمدحه وقرّظه، وكم هذا صعب على التوحيدي،الذي جبل على ثلب الناس، يقول التوحيدي في ابن نباتة:

«وأما ابن نباتة فشاعر الوقت، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند، قد لحق عصابة سيف الدولة وعد معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الائتمام بهم، خفي المغاص في واديهم، ظاهر الإطلال على ناديهم» ويتذكر التوحيدي جبلته فيضيف « هذا مع شعبة من الجنون، وطائف من الوسواس».

لقد أدنى عضد الدولة ابن نباتة من مجلسه، وعده من خواصه، كما فعل سيف الدولة من قبل، وكان ابن نباتة صادق العهد والمودة، صافي المشاعر نبيل الأحاسيس تجاه عضد الدولة فنظم فيه جميل الشعر في قوته وفي ضعفه، فقال وقد كثر الإرجاف بعلة عضد الدولة التي مات فيها:

إذا سمعت حديثًا عنك أحسبه يرتاع قلبي وما ألفى بمرتاع
أرضى وأقنع بالأطماع كاذبة فما يضرك لو أبقيت أطماعي
قد كاد يعرف وجه الذل في نظري ويظهر العجز والتقصير في باعي

كان ابن نباتة يقدم الشعر على سائر الفنون، ويرى فيه فضلاً على غيره، وقد أيده في هذا بعض شعراء زمانه ومنهم السلامي، وخالفهم في هذا أدباء آخرون ذكر التوحيدي بعض هؤلاء وبعض هؤلاء في الليلة الخامسة والعشرين من الإمتاع والمؤانسة حيث روى كلامًا في مراتب النظم والنثر.. وأيهما أجمع للفائدة وأرجع بالعائدة وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة؟

وكان ابن نباتة من أنصار الشعر، فمنه تستمد شواهد النحويين واللغويين والفقهاء والحكماء، فالحجج لا تؤخذ إلا منه، يروي التوحيدي قول ابن نباتة:

«من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: قال الشاعر، وهذا كثير في الشعر، والشعر قد

أتى به فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة»

وليس رأي ابن نباتة هذا بمستغرب، فهو شاعر مفلق، وصناع ماهر، وفر لصناعته طروب الإتقان والافتنان، وقد أعجب معاصروه بشعره وعدّوه من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم، وأفرادهم الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع لفظه بعيد المرام، مستمر النظام يشتمل على غرر من حرّ الكلام، كقطع الروض غبّ القطر..

ولا مبالغة في هذا، فجيّد شعره كثير، وقد تناقله الناس في الأمصار، وحملوا معهم نسخ ديوانه في حلهم وترحالهم بين حواضر الدولة العربية الإسلامية، فتأمل قيمة معاينه، وحسن مباينه في قوله:

طلاب المعاني للبنون صديق ... وطول الأماني للنفوس عشيق
تسربلْ ثياب الموت أو حلل الغنى ... تعشْ ماجداً أو تعتلقك علوق
وما الفقر إلاّ للمذلة صاحب ... وما الناس إلا للغنيّ صديق
وأصغر عيب في زمانك أنه ... به العلم جهل والعفاف فسوق
إذا لم تكن هذه الحياة عزيزة ... فماذا إلى طول الحياة نتوق
ألا أن خوف الموت مر كطعمه ... وخوف الفتى سيف عليه ذلوق
وإنك لو تستشعر العيش في الردى ... تحلّيت طعم الموت حين تذوق

الحضارة الإسلامية
تدعو إلى الحـوار

هيثم الكيلاني

• المسلم بما يحمله من رسالة عالمية لا يمكن إلاّ أن يكون حضاريا • الحالة الدولية الراهنة لا تسمح بحوار متوازن • الحضارة الإسلامية هي الوحيدة المرشحة للتعايش مع الحضارات الأخرى • في التاريخ المعاصر أدلة كثيرة على دور العامل المعنوي في توجيه مسير الأحداث • الحوار مع الآخر مطلب إسلامي وتكليف شرعي • ضعف الجسم العربي مدعاة لتحرك الأمراض والجراثيم فيه • التجارب التاريخية أثبتت أن الحضارة الإسلامية عصيّة على الذوبان • القوة المادية هي سبب البطش والتجبّر.

يمكن القول: إن الحضارة الإسلامية هي كل ما أنتجته الشعوب الإسلامية من إبداعات ومبتكرات عبرت عن نفسها في صور مادية ومعنوية وعقلية. وهي تشمل كل ألوان العمارة وأنواعها والآداب والعلوم والفلسفة والفنون وغيرها من المظاهر الحضارية.

وإذا كانت هناك سمات مشتركة تجمع ما بين الحضارات، باعتبارها إنجازًا بشريًا، ولا سيما في الجوانب المادية منها، فإن للحضارة الإسلامية خصائص تميزها عن سائر الحضارات

الأخرى. ويمكن سرد هذه الخصائص في العناوين الآتية: الشمولية، الإنسانية، الأخلاقية، العقلانية، الواقعية، التسامح، التنوع في إطار الوحدة، العالمية، التطورية الجمع بين الثبات والمرونة، الجمع بين الروحية والمادية، التوسطية، التوازن، الوضوح، الجمع بين التطبيقية والتنظيرية.

والمسلم، بما حُمِّل من رسالة عالمية، لا يمكنه إلا أن يكون حاضرًا في كل زمان، مشاركًا في بناء حضارته. فتفاعل المسلم مع عصره ومحيطه، وتحقيق التعارف بين الحضارات وسائر الحضارات الأخرى، هما حتم أوجبته الرسالة العالمية التي يحمل عبأها. أما وسيلته فهي الدعوة وتحقيق المَثَل وإقامة العدل ودفع الظلم والمجادلة بالتي هي أحسن. وهذا يعني أن الحوار واجب شرعي لذاته لأنه يحقق فريضة التعارف والتعاون في مدافعة الباطل ومجاهدته، والانتصار للحق وتغليبه، ونشر قيم العدل بين الناس. فالحوار، بهذا المفهوم، غاية في حد ذاته، ووسيلة للتعارف والتعاون. فنحن نعيش في عصر انتهى فيه ما كان يسمى عزلة الدول والشعوب. فعالمنا اليوم هو عالم التجمعات المتداخلة، وبخاصة تلك التجمعات التي تجمع بينها، روابط محددة، مثل الدين والتاريخ والثقافة. وليس في العالم المعاصر مثيل للعالم الإسلامي، الذي يجمع أكثر من خمسين دولة في رابطة دينية واحدة تبث ثقافة واحدة، ولكن هذا العالم تنوع في لغاته وثقافاته.

وقد تميز الإسلام باستيعابه ثقافات شعوب العالم، واحترام خصائصها. وعلى هذا فإن الفكر الإسلامي قوّم بروح إيجابية حضارات العالم، قديمها وحديثها، مادامت ترفض الشرك بالله وتدعو إلى وحدانيته.

إن الحضارة الإسلامية إذ دعت وتدعو إلى الحوار، فإن التساؤل الذي يطرح نفسه في الوقت الراهن هو الآتي: **هل يمكن أن يكون هناك حوار للحضارات، مبني على الأسس العلمية والحرية الفكرية، في إطار النظام العالمي الحالي، وبخاصة في ظل موجة العولمة التي تجتاح اليوم مختلف مجالات حياة الشعوب والدول؟**

من المعروف أن العلاقات الدولية، تغيرت في إثر ما طرأ على النظام العالمي من متغيرات، وبخاصة تلك الصراعات العنيفة بين أقوام وأعراق تنتمي إلى حضارات مختلفة، وتلك السياسات الاقتصادية والعسكرية والثقافية التي تسعى إلى فرض هيمنة نموذج حضاري محدد.

يضاف إلى ذلك، أن ساحة الفكر والسياسة في العالم ماجت بتيارات الجدال حول شكل العلاقة بين الحضارات، هل هو تحاور أو تصارع. ومن بين التساؤلات التي شملها ذلك الجدال هو: هل تعدّ الحضارة أو الأمة وحدة للتحليل في العلاقات الدولية؟ هل حلّ صراع الحضارات محل صراع القوى أو صراع الطبقات أو صراع المذاهب كمحرك للعلاقات الدولية. هل يقتصر صراع الحضارات

على الأبعاد القيمية والثقافية، أو أن هذا الصراع يمكن أن يتطور ليصبح قتالاً. وهل الظروف والشروط الراهنة للنظام العالمي هي التي توجه العلاقة بين الحضارات لتكون حوارًا أو صراعًا.

لا ريب في أن العلاقة بين الحضارات، سواء كانت حوارًا أم صراعًا، تتقاطع وتتداخل وتتلاقى في مساحات مشتركة، في حين أنها تتصارع في مساحات أخرى، إضافة إلى قضايا مختلفة وكثيرة، أصبحت الآن عالمية، تسهم الحضارات في إبداء الرأي فيها، وقد تتصادم. وعلى هذا برزت عدة تيارات في شأن العلاقة بين الحضارات. ففي حين رأى التيار الأول أن هذه العلاقة ستشهد تصادمًا بين الحضارات، اتجه التيار الثاني نحو تأييد الحوار ودعمه. ورأى التيار الثالث أن شروط الحوار وظروفه غير متوافرة الآن، لأن الحالة الدولية الراهنة لا تسمح بحوار متوازن مادام ميزان القوى العالمي مختلاً لمصلحة طرف محدّد هو الحضارة الغربية. ويذهب تيار رابع إلى أن الحوار ضروري لإخراج العالم من أزمته الراهنة، ولكن هذه الضرورة متلازمة مع ضرورة أخرى، هي توافر شروط وظروف تسمح للحوار بالانطلاق من مبادئ المساواة وحرية الفكر وتعادل وسائل التعبير والتحاور، أي كل ماهو ضروري لكي يحقق الحوار أهدافه المتصلة بالجوانب المادية والقيمية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية.

نضيف إلى ذلك أن حوار الحضارات لا ينبغي أن يقتصر على

منـاظرات أكاديميـة تكشـف مـدى إسـهام كـل حضـارة في بنـاء الحضـارة الإنسـانية وسـبق كـل حضـارة في هـذا المضـمار. ولابـد للحوار من أن يتصدى لرصد معالم الصور المرسومة وتحليلها عن الشـعوب والحضـارات في أذهـان الآخـرين، وإمكانـات تطـوير هـذه الصـور، ثـم طـرح معـالم الصـورة الحقيقيـة. كمـا أنـه لا ينبغـي أن يسـتخدم الحـوار لإذابـة الفـوارق والخصوصـيات الذاتيـة لأي مـن أطرافه أو لعولمة ثقافة مـا أو تغيير الأنساق القيمية للآخرين، لأن الهدف من الحوار هو توسيع الأرضية المشتركة بين الحضارات من أجل تحقيق التعاون في بناء الحضارة الإنسانية.

فمـن طبيعـة الحيـاة الإنسـانية أن يكـون لكـل تجمـع بشـري أو مجموعة من التجمعات كيان حضاري خاص بها. ويمكن القول: إن إنكار وجود هذه الحضارات لا يعني عدم وجودها، بقدر مـا يعني التوجـه نحـو تجاهلـها. ولـيس هنـاك بـديل لهـذا الإنكـار – وهـو في رأينـا مصـطنع أو غـير واقعـي – سـوى بـديل نمـوذج العـالم الواحـد الذي يقول إن هناك حضارة عالمية شاملة قائمة الآن أو إنها ستقوم في قـادم الأيـام. ولا يصـمد هـذا البـديل أمـام واقـع الحيـاة، حيـث يتحقق نـاموس الحيـاة ﴿وجعلنـاكم شـعوبًا وقبائـل لتعـارفوا﴾. وفي هـذه الآيـة الكريمـة يتأكـد أن العـالم مكـون مـن (شـعوب وقبائـل) ولـيس (التجاهـل). ومـن شـروط (التعـارف) أنـه يـتم في بيئـة مـن السلم والعلم والتبادل والأخذ والعطاء.

ومن هذا القبيل – أي قبيل إلغاء التعددية الحضارية وطي مفهوم التعارف بين الأمم والدول – جاءت مقولة نهاية التاريخ. ففي إثر انهيار الاتحاد السوفييتي وانتصار الديمقراطية الليبرالية جرى تصوير أن هذا الانتصار يمثل نهاية التاريخ، بحيث لا يكون هناك (تاريخ جديد) ولا (انتصار جديد) وإنما نحن أمام ما يشبه (نهاية العالم). وترجع جذور هذه المقولة إلى الفرضية التي شاعت طوال عصر الحرب الباردة، وهي أن البديل الوحيد للشيوعية هو الديمقراطية الليبرالية، وأن زوال الأولى يؤدي إلى عالمية الثانية وسيطرتها على الكون ومستقبل البشرية بحيث لا يكون هنا (تاريخ) وإنما سيكون هناك (استمرار). وقد وصف هنتنغتن انتصار الغرب هذا بأنه «غرور أجوف ... والافتراض الشائع لدى أهل الغرب بأن الشعوب الأخرى التي تأخذ بالتحديث لابد لها من أن تصبح مثلنا هو نوع من الغرور الغربي الذي يوضح بنفسه صدام الحضارات» ذلك أن التصادم والتدافع بين الحضارات، كما هما بين الشعوب والدول، أمور ترتبط بالاختلاف في المعتقدات والعادات والأفكار والمطامع السياسية والاقتصادية وغيرهما. ولأنهما ليسا حتميين فإنهما لا يمنعان التعاون والتعايش بين الحضارات. وإذا كانت هناك حضارة مرشحة لأن تحقق السلم والوئام بين الحضارات من خلال التفاهم والتعاون واقتباس المفيد فهي الحضارة الإسلامية، لأن عناصر الوسطية

متوافرة فيها. ولأنها تنظر إلى الإنسانية كلها على أنها أسرة واحدة، وأن جميع الناس من دون استثناء هم خلق الله، وأن الاختلافات الموجودة في العقائد والأفكار والألسن والألوان والعادات هي اختلافات طبيعية.

الحضارة الإسلامية هي المرشحة لتفهم سائر الحضارات الأخرى والتفاهم والتعايش معها. وإذا ما وجد تصارع بين الحضارات، فليست الحضارة الإسلامية هي التي بدأته. وشواهد التاريخ ووقائعه تثبت هذه الحقيقة.

تعرضت الحضارة الإسلامية - ولا تزال - لحملات متتابعة ومختلفة من التشويه. وإذا لم يكن من أهداف هذا البحث استعراض وقائع التاريخ المثبتة لهذا التشويه المقصود، فلا يفوتنا أن نشير إلى ما يتهم به المسلمون من عنف وإرهاب، وبخاصة حينما يتصدى الشعب الفلسطيني المسلم للاحتلال.

وعلى الرغم من استمرار تعرض الحضارة الإسلامية لهذه الحملات المتواصلة ضدها، لاتزال تمارس طريقة المجادلة بالتي هي أحسن، بكل ما تؤدي إليه من نتائج التبادل الفكري والتفاعل الاجتماعي والإنساني، باعتبارها من أصل التوجيه القرآني الذي ينظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان، نظرة التقدير والإكرام. فلا توجّه إليه دعوة إلا مقرونة باللطف والإحسان.

ومادام الإسلام قد أقر مبدأ المجادلة بالتي هي أحسن لكل

إنسان بوصفه إنسانًا، حتى ولو كان مشركًا أو وثنيًا، فلا غرابة في تخصيصه أهل الكتاب وأتباع الأنبياء بأرفع آداب الجدال والنقاش.

وهكذا حل الحوار في الإسلام في مكانة مرموقة بين مقاصد الإسلام ووسائل نشره بالإقناع والحجة. لقد كان تسامح السلطان صلاح الدين الأيوبي، باسم الإسلام، مع محاربيه من الفرنجة المعتدين (الحروب الصليبية) نموذجًا حضاريًا يؤكد جوهر الحضارة الإسلامية في التسامح.

كما أن المؤرخين المسلمين القدماء كانوا أطلقوا اسم (حروب الفرنجة) على ما نسميه اليوم (الحروب الصليبية)، ذلك أن أولئك المؤرخين كانوا يدركون أن غزاتهم، وإن كانوا يرتدون ألبسة تحمل شارة الصليب، لم يحضروا إلى فلسطين وما حولها بسبب الدفاع عن المسيحية وتحرير أرضها.

وفي التاريخ المعاصر دلائل تشير إلى العامل المعنوي الحضاري في مسيرة الأحداث. فقد عبر الجيش المصري في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م أكبر حاجز مائي في التاريخ. وقد تم في ظل نداء جماعي هو (الله أكبر). وقد كان لهذا النداء تأثيره المباشر في عمل الجندي المصري وأدائه حتى الاستشهاد. ولقد أجمع خبراء الإستراتيجية على تعظيم هذا العامل المعنوي الذي حقق معجزة بالمقاييس الغربية ذاتها. وهو ما لم يستطع هؤلاء الخبراء إدراكه

إلا بعد أن تحققت المعجزة.

ونضيف إلى هذا عاملاً جد مهم أثبتت وجوده وعبّرت عن قيمته انتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الإسرائيلي. ففي تلك الانتفاضة التي بدأت يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨م (انتفاضة الأقصى) كانت إرادة الاستشهاد لدى أبناء الشعب الفلسطيني سبيلاً لتعديل ميزان القوى، حيث كان الجيش الإسرائيلي، بكامل أسلحته وقوته، يعمل لوأد انتفاضة الشعب الفلسطيني الأعزل من كل سلاح، سوى الحجارة وإرادة الاستشهاد. ولقد كانت إرادة الاستشهاد هذا - بما له من معنى عقائدي عميق - ولا تزال أبرز أسلحة المجاهدين العرب لتحرير الأرض المحتلة.

وإذا كانت الحضارة ذاتها لا تحارب، وإنما هي تطبع سلوك أبنائها، فإن دراستها وفهمها ضروريان عند قراءة صراع ما، لتكون تلك القراءة شاملة جميع العوامل المادية والمعنوية المحركة للصراع والعاملة فيه.

إن إحياء سنّة الحوار، بأبعاده وآدابه ومواصفاته وخطابه، شرط لكي تقوم الأمة بدورها في بناء الحضارة، ذلك أن المساحة التي خصصها القرآن لـ (الآخر) تفوق المساحة التي تحدث عنها بالنسبة للعقيدة والعبادة والأخلاق في الإسلام، لأن هذه المرتكزات الإسلامية تتأصل وتتحقق بالحوار نفسه. وقد عرض القرآن (الآخر) بكل آرائه ومعتقداته وممارساته، ذلك أن الحوار هو إحدى

الوسائل الكبرى للدعوة، والسبيل لإيصال الحق في الإقناع والبرهان وأدب التعامل. والإنسان هو المخلوق الذي لا ينفع معه الإكراه، وبخاصة أن التدين هو أرقى حالات الحرية والاختيار.

والحوار مع (الآخر) مطلب إسلامي، بل هو تكليف شرعي، يقع تحت مدلول الآية ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحَسنَة وجادلْهم بالتي هي أحسن﴾. وهكذا لم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة، وإنما نص على أسلوبها، واشترط أن تكون بالتي هي أحسن، وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة. ونحسب أن المبادرة بالحوار، والدعوة إليه، تبدآن من عند المسلم، فهو أكثر حرصًا عليهما من (الآخر). ففي قوله تعالى ﴿قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواء بينَنَا وبينَكم﴾. تكليف شرعي مجرد من الزمان والمكان. ويعني هذا أن لا عذر ولا مصلحة قط في إقفال باب الحوار مع (الآخر) أو إلغائه مهما كانت الأسباب.

إن أساس التحاور هو الآية الكريمة: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. لقد جعل هذا الحكم الإلهي التعارف هدفًا. وهو هدف مسبوق بالجهل الطبيعي بين الشعوب والقبائل. ذلك أن الجهل المتبادل لا ينتج إلا التفرق والتباعد. وحتى يتم إلغاء التفرق والتباعد، لا بد من أن يعرف الناس بعضهم بعضًا، وأن يتحقق أمر اجتماعهم . والنداء موجه إلى الناس كلهم وليس

إلى فئة معينة منهم، وصلاح أمورهم. ومن الملفت للنظر هنا استخدام القرآن الكريم مصطلح (التعارف) الذي يعني تبادل المعرفة على قدم المساواة، من غير ترجيح جماعة على جماعة. وهو تكليف متوازن عادل في النظر إلى حقوق وواجبات الشعوب والأمم، وفي حضّ الناس قاطبة على التحاور من غير تخصيص لفئة أو تفضيل لأحد. وما ربط الآية التعارف بالتقوى سوى ربط للتحاور نفسه بهذه التقوى، فالأتقى هو الأكرم عند الله، وهو الأنفع لأخيه الإنسان وللمجتمع.

إن أبرز ما في منظومة القيم التي تتبناها الحضارة الإسلامية، الاعتراف بالآخر، أي عدم إقصائه أو إلغائه، ليس على المستوى الفكري فقط، وإنما على المستوى الفعلي أيضًا، وذلك باستمرار التحاور معه، ودعوته إلى الحق. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواء بينَنَا وبينَكم﴾. مدى غير محدود للتحاور معه، ومعرفته والاعتراف به، لأن الإنسان هو محل الدعوة وهدفها والمجال الحضاري لدور الأمة، ولأن معرفة الآخر هي السبيل الصحيح للتعامل والتحاور معه، سواء كان غالبًا مسيطرًا بثقافته وحضارته، أم كان شريكًا، لأنه في نهاية المطاف، الهدف الذي تسعى إليه رسالة الإسلام. فالرسالة الحضارية الإسلامية تشتمل على بعدين: يرتكز أولهما على الذات ومعرفة إمكاناتها بدقة علمية، ويتوجه الثاني نحو معرفة الآخر، باعتبارها

السبيل الصحيح للتعامل معه، أخذًا وعطاء، وتأثرًا وتأثيرًا. وتزداد هذه المعرفة وضوحًا ورسوخًا في عصر العولمة وثورة الاتصالات والإعلام.

ثمة نقطة مهمة يجدر بنا توضيحها، هي أن الفقه الإسلامي لا يكرّس (الصراع) كقانون تاريخي مطلق كما تقدمه المدرسة الواقعية في الفكر الغربي. وفي الفقه الإسلامي أن التدافع سنة من سنن الاجتماع البشري إلى جانب سنن الله الأخرى، كما أن فقهه ومنطقه يختلفان كل الاختلاف عن مفهوم الصراع. ذلك أن الجهاد في معناه ليس صراعًا مع الآخر للقضاء عليه، كما أنه ليس لتأكيد هيمنة قوم على قوم أو ثقافة على ثقافة، ولكن لتحقيق أهداف الدعوة والرسالة باعتبارهما موجهين إلى العالمين ليس بالإكراه والقسر. ومن هنا فلنا أن نعدّ أن منطق صدام الحضارات يعكس التناقض بين عالمية الإسلام من جهة وهيمنة الحضارة الغربية من جهة أخرى، في حين أن الحوار يغير طبيعة هذا التناقض.

ويتمثل الإسهام الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد في المشاركة في صوغ الحضارة الإنسانية، وبخاصة بعد أن تتالت التقويمات الخاصة بالهوة الواسعة بين غنى الحضارة الغربية بالماديات وفقرها بالروحيات، ذلك أن الحضارة الإسلامية هي القادرة على إغناء ذلك الجانب من الحضارة، بما تملكه من

مصادر ثابتة وثرّة، وبخاصة أن الإسلام يبني أحكامه على أساس التقاء الشعوب والدول على مبدأ السلام العالمي، ويرفض فكرة الحرب لذاتها، ويجعل الجهاد وسيلة لأهداف هي نصرة المظلوم وحفظ حقوق الناس في حرية المعتقد وغيرها من الحريات الفردية والجماعية.

ودعوة الإسلام هذه للسلام العالمي مبنية على التسامح والتعاون بين البشر، حتى مع المخالفين له في العقيدة، فهما وسيلته إلى تجنّب التحاسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري، والتعصّب الديني، وإلغاء الحروف والصراعات المسلحة القائمة على تلك الأسباب وعلى الرغبة في الفتح والتوسع ونهب خيرات الآخرين.

وفي مقابل أطروحة الصدام بين الحضارات، تتصف الدعوة إلى التحاور بين الحضارات بمبدأ الاعتراف بالآخر وبحق الاختلاف، وبرفض أي نزوع لمحاولة الابتلاع أو الاحتواء، أو الاستيلاء على الأرض أو مصادرة الحقوق. إن التحاور يعني الانطلاق من الاعتراف بعوامل وأسباب التمايز والخصوصيات. أحد أهداف التحاور هو التعرف إلى تلك العوامل والأسباب، وترسيخ مبدأ الاعتراف بالآخر، والسعي لتخفيف حدة عوامل الاختلاف، وتذليل عقبات التفاهم. إن ذلك كله يندرج في إطار ما يسمى الآن (الديمقراطية الحضارية) ، التي تدعو إلى التفاعل بين الحضارات

على أساس التفاهم وليس التصادم.

لا ريب في أن منطلقنا للتحاور مع الآخر، هو القيم والتصورات السائدة في الفكر الإسلامي عن (العالم) وبخاصة الغرب منه وحضارته. وتندرج في دائرة القيم والتصورات نظرية (المؤامرة العالمية) التي تهدف إلى منع تحقيق أي انتصار عربي أو منع تحقيق أي مشروع عربي جماعي. لا ريب في أن هذه النظرية تتصف بالمبالغة والتهويل. فمن الطبيعي أن يكون ضعف الجسم العربي مدعاة لتحرك الأمراض والجراثيم فيه. وما يهمنا في حوار الحضارات هو أن نوضح (خصوصية الأمة العربية)، من حيث وحدتها (كأمة) ولغتها ودينها وتاريخها وثقافتها الإسلامية.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تلتقي مع الحضارات الأخرى في عوامل متعددة، فإنها تفترق عنها جذريًا في عامل رئيسي، هو الدين الذي ترتبط به الحضارة الإسلامية، فهو محرّكها وموجّهها. ولا يعني هذا أن الحضارة الإسلامية حضارة دينية (ثيوقراطية) بالمعنى المقدس، بل هي فعل إنساني معياره الذي يقاس عليه هو الدين. وهذا الرابط الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، وهو الذي يحدد دورها في المستقبل، وبخاصة أنه أكّد الانتماء الإنساني الواحد، وقدّم عامل الوحدة الإنسانية على عوامل الفرقة، وكرّم الإنسان لإنسانيته، وبذلك جاءت مساحة الإنسان والإنسانية في الخطاب القرآني واسعة ومتنوعة.

إضافة إلى هذا، فإن الحضارة الإسلامية إذ تنطلق من الإسلام، فإنها لا تعني أنها الإسلام ذاته، بل هي الفعل الإنساني للمسلم. وهذا الفعل ينطلق من المبادئ والتصورات والرؤى التي يحملها المسلم. لذا فإن الحضارة الإسلامية حضارة مستمرة لا تعرف الاندثار. فهي قد تتراجع أو تقصر عن الإسهام في صوغ الحضارة الإنسانية في فترة تاريخية محدّدة، لكنها تختزن دائمًا مقومات النهوض، مادامت هي فعل المسلم ذاته.

ولعل من الأمور الجديرة بالاهتمام، أن الاستقراء الأمين للتاريخ الحضاري للأمم، يثبت أن الحضارة الإسلامية كانت ولا تزال عصية على التذويب والذوبان، وأنها لم تخضع لما سمي قانون الدورات الحضارية، بحيث تمر بمرحلة الشباب والفتوة الحضارية، ثم مرحلة الشيخوخة حتى الانقراض. فالحضارة الإسلامية لم تكن حكرًا على جنس أو لون أو قوم، وإنما اتجهت صوب المشترك الإنساني. وهي وإن أَفَلت في مكان، أشرقت في مكان آخر. لذلك نجد عطاءها اليوم ممتدًا في الزمان والمكان، من أكثر المناطق تخلفاً إلى أكثرها تقدمًا.

إن إقامة حوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية يتطلب رضى الطرفين على بدء الحوار بعد وضع أسسه وأهدافه. ولكن الغرب يقوّم . سلفاً . الطرح الإسلامي بشأن الحوار على أنه سعي نحو التخلص من الهيمنة الغربية، كائنًا ما كان شكل تلك الهيمنة

ومجالها. لاشك في أن مشكلتنا، كأمة عربية جزء من الحضارة الإسلامية، مع الغرب وحضارته هي مشكلة سوء تفاهم، فالغرب يفهمنا جيدًا، ولكنه يرى أن مصالحه الاقتصادية وأمنه وقيمه الحضارية مهددة بالخطر إذا ما حقق العرب هدفهم في الوحدة، أو أصبحوا أهل وزن استراتيجي واقتصادي وسياسي وحضاري ثقيل.

إن لعداء الغرب للعرب أربعة أسباب موضوعية: (**أولها**: الموقع الاستراتيجي المهم الذي يشغله الوطن العربي على مقربة أوروبا. **وثانيها**: النفط، الذي يعتقد الغرب أن من حقه أن يحصل عليه بالثمن الذي يناسبه وبالكمية التي يحتاجها. **وثالثها**: إسرائيل. **ورابعها**: الحسابات التاريخية الحضارية المعلقة منذ القدم والتي لم تنجح حقبة الاستعمار والانتقام التي تميزت به من تصفيتها في وعي الغرب والعنصر الحساس في هذا الحساب هو الإسلام).

وبعبارة أخرى، فإن لقبول الغرب العرب شروطًا هي (**أولها**: أن يؤمنوا ويتصرفوا على أساس أنهم ليسوا أمة ولا كتلة ولا جماعة، بل أقوامًا وأقليات متناحرة متناقضة. **وثانيها**: الإقرار للغرب بحق السيطرة على النفط العربي كمية وسعرًا. **وثالثها**: الاعتراف بإسرائيل والتسليم لها بكل فلسطين، والتفوق الاستراتيجي على العرب مجتمعين. **ورابعها**: التخلي عن الإسلام واعتباره دينًا متخلفًا وهمجيًا وداعيًا للعنف والإرهاب).

إن أسباب عداء الغرب وحضارته للعرب وللحضارة الإسلامية

محسوبة ومعروفة. وهي ليست نزوة أو خضوعًا لدعاية أو ناشئة عن نقص في المعلومات. ويعني هذا أن المشكلة ليست إعلامية، بل إستراتيجية واقتصادية وسياسية.

ثمة من يعرّف الحضارة على أنها هي تقدم المجتمع البشري. بيد أن المفهوم الإسلامي يشترط أن تبنى الحضارة على أساس معايير إنسانية، أو على معايير التقوى والتعبير القرآني ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. فالقوة المادية وحدها هي سبب البطش والتجبر. وهي تبقى كذلك إذا لم تكن مقرونة، أساسًا، بقيم إنسانية جوهرها التقوى.

من أذكار شهر رمضان

أللهمّ إنّي أسألك من بهائك بأبهاه وكل بهائك بهي اللهم إني أسألك ببهائك كله.

اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل أللهم إني أسألك بجمالك كله.

أللهم إني أسألك من جلالك بأجلّه وكل جلالك جليل. أللهم إني أسألك بجلالك كله.

أللهم إني أسألك من عظمتك بأعظمها وكل عظمتك عظيمة أللهم إني أسألك بعظمتك كلها.

أللهم إني أسألك من نورك بأنوره وكل نورك نيّر أللهم إنّي أسألك بنورك كلّه.

أللهم إني أسألك من رحمتك بأوسعها وكل رحمتك واسعة. أللهم إني أسألك برحمتك كلها.

تحدّي التجزئة الطائفية

• المسألة الطائفية اتخذت على المستوى الشعبي طابعا عشائريا • المتعصبون القوميون العرب منهم والإيرانيون يذهبون إلى أن نشأة التشيع إيرانية • مسألة التشيع والتسنن ما كانت يوما ذات صفة قومية • المسألة الطائفية يمكن أن يتناولها الحوار الإيراني ـ العربي.

العالم الإسلامي يرث تجزئة طائفية إلى سنّة وشيعة، وهذه التجزئة بدأت في القرن الأول الهجري وتعمّقت واتسعت على مرّ التاريخ، وتحولت إلى اختلاف بعضه يعود إلى اختلاف في الرؤية إلى أحداث تاريخية، وبعضه يعود إلى خلاف في بعض أصول الدين وفروعه. ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لهان، لأنه سيكون خلافًا علميًا يتناوله العلماء والمتخصصون بالنقاش، وقد يتفقون في النهاية أو يختلفون، وهذا هو الشأن في كل حقول العلم والمعرفة، ولكن المسألة تتعدى الإطار العلمي لتأخذ على الصعيد الشعبي طابعًا نفسيًا عشائريًا، فثمة العشيرة الشيعية والعشيرة السنية، والانتماء حينئذ لا يكون قائمًا على أساس فكر وعقيدة قدر ما يكون مستمدًا من حالة نفسية وانتماء طائفي. عندئذ لا تعالج الحالة بالنقاش الفكري والعلمي والمعرفي فقط، بل تحتاج إلى علاج نفسي أيضًا. وأعتقد أن الإيرانيين والعرب أقدر من غيرهم.

لما سأذكره. على معالجة الموقف.

لا بد من أن أذكر أولاً أن بعض الدراسات القومية المتعصبة، إيرانية كانت أو عربية، ذهبت إلى أن نشأة التشيع إيرانية. من قال ذلك من العرب قصد به الإساءة إلى التشيع باعتباره ذا نشأة بعيدة عن جو الرسالة وأصحابها، ومن ذهب إلى ذلك من الإيرانيين استهدف به الإشادة بالروح القومية الإيرانية التي تحايلت فحافظت على نفسها وقوتها ووجودها في إطار ديني صنعه الإيرانيون على نهج الثقافة الساسانية واتخذ صفة التشيع. ومنهم من قال إن ولاء الإيرانيين لآل البيت إنما كان بسبب انتماء علي بن الحسين نسبًا إلى الإيرانيين، إذ إن أمه أميرة إيرانية هي شهربانو بنت آخر الملوك الساسانيين يزدجرد. ليس هنا موضع إجابة تفصيلية عن هذه الادعاءات، بل نشير إليها فقط بقدر ما يوضح أن الانقسام المذهبي لم يكن ذا طابع قومي.

أولاً- إن الشواهد التاريخية الكثيرة تدل على أن إقبال الإيرانيين على الإسلام كان تدريجيًا وعن رضا وقناعة منهم، ولم يكن بحد السيف والإجبار كي يضطروا إلى التحايل على الدين.

ثانيًا- إن آخر الأكاسرة الإيرانيين يزدجرد فر من عرشه متنقلاً بين المدن الإيرانية فلم يؤوه أحد، دلالة على رفض الشعب الإيراني هذا الحاكم الظالم.

ثالثًا - لو كان الإيرانيون مجبرين على إخفاء هويتهم خلال

القرنين الأولين، فلماذا واصلوا خدماتهم للإسلام وتعميق هويتهم الإسلامية بعد ضعف الخلافة المركزية ؟!

رابعًا – إن قضية زواج شهربانو من الحسين بن علي عليه السلام مشكوك فيها لا تسندها الحقائق التاريخية.

خامسًا – لو كان احترام الإيرانيين آل البيت يعود إلى انتسابهم إلى العائلة الساسانية لكان من الأولى أن يتجه ولاؤهم إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وابنه يزيد بن الوليد، لأن هذا الخليفة تزوج من أميرة إيرانية ولدت له يزيد هذا، ولاتجه ولاؤهم إلى عبيد الله بن زياد لأن أمه إيرانية شيرازية هي «مرجانة»، ولاتجه ولاؤهم أيضًا إلى الخلفاء العباسيين لأن أكثر أمهاتهم إيرانيات.

سادسًا – الأهم من كل ما تقدم أن أكثرية الإيرانيين الساحقة كانت قبل العصر الصفوي سنية، بل كان فيها توجه ناصبي معادٍ لآل البيت، وهذا التوجه أبى أن يمتنع عن سب علي بعد أن منعه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. وكبار العلماء الإيرانيين قبل العصر الصفوي من المفسرين والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والأدباء واللغويين كانوا على مذهب أهل السنة. ومن الطريف في هذا المجال أن أهل مصر كانوا يتبعون فتوى فقيه إيراني هو الليث بن سعد، بينما جل الإيرانيين كانوا على مذهب فقيه عربي هو الشافعي. وكان بعض العلماء الإيرانيين يناصرون مذهب الشافعي العربي بشدة ويعارضون مذهب أبي حنيفة

الإيراني بشدة مثل إمام الحرمين الجويني والغزالي.

ومن الطريف أيضًا في هذا المجال أن أبا حنيفة الإيراني يفتي بأن الإيرانية ليست كفوًا للعربي، انطلاقًا من ترجيح العنصر العربي، فلا يجوز أن يتزوج العربي من إيرانية، بينما مالك بن أنس العربي يرفض هذه الفتوى ويرى عدم وجود تفاضل بين الجنسين.

يطول بنا البحث لو أردنا إحصاء كل هذه المفارقات، لكننا أردنا أن نخلص إلى نتيجة، هي أن مسألة التسنن والتشيع ما كانت ذات طابع قومي، لكنها اتخذت هذا الطابع بعد النزاع الصفوي - العثماني، فأصبحت إيران في العصر الصفوي تمثل الدولة الشيعية، بينما الدولة العثمانية بما فيها البلدان العربية تمثل الجانب السني. وكان للدول الطامعة في العالم الإسلامي دور في تغذية هذه التجزئة، ومن المؤسف أن التوجه القومي المتعصب في إيران والعالم العربي، وهكذا الاستشراق، راح يبحث عن كل المفردات التاريخية التي تزيد الحساسيات الطائفية اضطرامًا. ثم إن الموجة العالمية السائدة اليوم لمواجهة مايسمى بالخطر الإسلامي تتجه في ما تتجه إلى تمزيق العالم الإسلامي، وربما لا يمكن في القريب العاجل تبديل فكرة الصراع الحضاري إلى الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب، ولذلك فإن الاحتمال كبير في أن ينفّذ الغرب خطة التمزيق بشكل متقن سريع كما أوصى بذلك مفكروه من أمثال هانتنغتون.

وسواء عزونا الصراع الطائفي المشهود في العالم الإسلامي إلى عوامل داخلية أو أجنبية، فإن الواقع يشهد في الإطار الطائفي مذابح في باكستان وأفغانستان، كما يشهد صراعًا بين المؤسسات الإسلامية العاملة في أفريقيا وشرق آسيا وفي آسيا الوسطى. والمعلومات تذكر أن هذا الصراع يترك آثارًا سيئة في المسلمين العائدين أخيرًا إلى حظيرة العالم الإسلامي، كما يترك آثارًا سيئة على أتباع الأديان المختلفة في شرق آسيا، فهناك طوائف دينية أرادت أن تعتنق الإسلام، فلما وقفت أمام مفترق طريقين ورأت النزاع بين الفريقين آثرت البقاء على نحلتها حفظًا لوحدة طائفتها.

من الممكن أن يتخذ الحوار الإيراني - العربي من مسألة التفاهم المذهبي محورًا من محاوره. وسواء توصل إلى نتيجة أو لم يصل، فإن الحوار المذهبي نفسه يدفع بقضية الاختلاف من الحالة النفسية العشائرية إلى حالة علمية فكرية.

ولقد كانت للعرب والإيرانيين تجربة ناجحة في هذا المجال عبر "دار التقريب بين المذاهب الإسلامية" في القاهرة، وتجري المحاولات اليوم في إيران لمواصلة هذه التجربة عبر «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية» ، وعسى أن يكون الحوار العربي- الإيراني عبر المثقفين والجامعيين خطوة أخرى على طريق تجاوز سلبيات التمذهب في العالم الإسلامي.

حي بن يقظان
لابن طفيل

• الحديث عن الإنتاج الثقافي الأندلسي يثير في النفس الأسى على ضياع الأندلس. وهذا الأسى ليس على أرض فُقدت، أو دولة أُزيلت، بل على فرصة عظيمة قد ضاعت، فرصة اللقاء بين الحضارتين الأوربية والإسلامية. لعلّ كثيرًا من المآسي التي حلّت بالعالم خلال القرون الأخيرة ما كانت لتحدث لو أن التفاعل الحضاري في الأندلس قد تواصل. على أي حال نفتح هذه الصفحة من ثقافة المسلمين في الأندلس، عسى أمل أن ينفتح حوار جاد بين العالم الإسلامي وأوربا عبر اسبانيا التي ترث هذه الثقافة نظريًا، ونبدأ بأثر أندلسي مشترك بين الأندلس في أقصى الغرب وإيران في أقصى الشرق، وهو قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبدالملك، ولد سنة ٥٠٦هـ ، وتوفي سنة ٥٨١هـ . عمل طبيبًا لأبي يعقوب يوسف المنصور خليفة

الموحدين. ثم تخلّى عن هذا العمل وتركه لابن رشد. وهو الذي حثّ ابن رشد على شرح كتب أرسطو.

ويظهر أنه ألّف في الطب وفي الفلك، غير أنه لم يبق لنا من مؤلفاته سوى رسالة حي بن يقظان أو أسرار الفلسفة الإشراقية وترجمها بوكوك Pockocke إلى اللاتينية بعنوان «الفيلسوفُ المعلِّمُ نفسَه» Philosophus autodactians ونشرها سنة ١٦٧١م. وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢م، وترجمها أوكلي إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨، وترجمت إلى الألمانية سنة ١٧٨٢م وإلى الإسبانية سنة ١٩٠٠م، وإلى الروسية سنة ١٩٢٠م.

القصة فلسفية عرفانية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين. **وهو بذلك يحذو حذو أبي علي ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨هـ)، ويتابعه في منهجه.** يقول في مقدّمة القصة:

«سألت أيها الأخ الكريم، الصفي الحميم – منحك الله البقاء الأبدي وأسعدك السعد السرمدي – أن أبثّ إليك ما أمكنني من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا، فاعلم: أن من أراد الحقّ الذي لا جمجمة فيه، فعليه بطلبها والجدّ في اقتنائها».

ثم إن شخصيات القصة (حي بن يقظان، سلامان، أبسال) هي نفس شخصيات قصة حي بن يقظان لابن سينا.

ويقارن أحمد أمين بين القصتين أدبيًا يقول:

« لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية وجدنا أن ابن طفيل أرقى من ابن سينا بكثير من حيث اللغة والأدب، فعبارة ابن طفيل أدبية مشرقة، وعبارة ابن سينا مغلقة غامضة».

ويذكر أن ثمة فيلسوف ثالث ألّف قصة حيّ بن يقظان بعد ابن طفيل **هو شهاب الدين السهروردي** (قتل في ٧٥٨هـ) وفي بداية هذه القصة يذكر السهروردي تأثره بابن يقظان لابن سينا يقول:

«إني لما رأيت قصة حيّ بن يقظان وصادفتها مع مافيها من عجائب الكلمات الروحانية، والإشارات العميقة، عارية من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم المخزون في الكتب الإلهية، والذي يترتب عليه مقامات الصوفية وأصحاب المكاشفات، ولم يُشر إلى ذلك الاّ في آخر الكتاب، أردت أن أذكر طورًا في القصة سميتها أنا قصة الغريبة الغربية».

وقصة السهروردي نوع من الأدب الرمزي، ولذلك يحتمل المعاني الكثيرة والتفسيرات المختلفة.

وبعد فإن الحديث عن قصة حي بن يقظان لابن طفيل يمكن أن يندرج ضمن إطار التبادل العلمي والفكري والأدبي بين إيران والأندلس.

تبدأ القصة بذكر وجود إنسان باسم «حيّ بن يقظان» في جزيرة خالية من البشر. وكيف وُجد هذا الإنسان هناك؟ يشير في البداية إلى رأي الذين يذهبون إلى «تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب»، ثم يسرد رأي من ينكر ذلك ويروي

قصة وجود هذا الإنسان هناك يقول:

«كان بازاء تلك الجزيرة، جزيرةٌ عظيمة متسعةُ الأكناف، كثيرةُ الفوائد، عامرةُ الناس، يملكها رجل منهم شديدُ الأنفة والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضَلَها ومنعها الأزواج إذ لم يجد لها كفوًا.

وكان له قريب يسمّى يقظان فتزوجها سرًا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم.

ثم إنها حَمَلَت منه ووضعت طفلاً. فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرّها، وضعته في تابوت أحكمت زَمّه (شدّه) بعد أن أروته من الرضاع؛ وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر، وقلبها يحترق صبابةً به، وخوفًا عليه، ثم إنها ودّعته وقالت: "أللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئًا مذكورًا، ورزقته في ظلمات الأحشاء، وتكفّلت به حتى تمّ واستوى. وأنا قد سلّمته إلى لطفك، ورجوتُ له فضلك، خوفًا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد. فكن له، ولا تسلّمه، يا أرحم الراحمين" ثم قذفت به في اليمّ.

فصادف ذلك جريَ الماء بقوة المدّ، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدّم ذكرها. وكان المدّ يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه بعد عام. فأدخله الماء بقوته إلى أجَمةٍ (منطقة ذات شجر) ملتفةِ الشجر عذبةِ التربة، مستورةٍ عن الرياح والمطر، محجوبةٍ عن الشمس تزاور (تنحرف) عنها إذا

طلعت، وتميل إذا غربت. ثم أخذ الماء في الجزر. وبقي التابوت في ذلك الموضع، وعلَت الرمال بهبوب الرياح، وتراكمت بعد ذلك حتى سَدّت مدخل الماء إلى تلك الأجمة. فكان المدّ لا ينتهي إليها، وكانت مساميرُ التابوت قد قلقت (تحركت)، وألواحه قد اضطربت عند رمي الماء في تلك الأجمة.

فلما اشتد الجوع بذلك الطفل، بكى واستغاث وعالج الحركة، فوقَعَ صوته في أُذُن ظبية فقدتْ طَلاها (ولدها)، خرج من كناسه (بيته) فحمَلَه العُقاب، فلما سمعت الصوتَ ظنّته ولدَها. فتتبعت الصوت، وهي تتخيل طلاها، حتى وصلت إلى التابوت، ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله، حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه. فحنّت الظبية وحنّت عليه ورأفت به، وألقمته حُلمتها وأروته لَبنًا سائغًا. ومازالت تتعهّده وتربّيه وتدفع عنه الأذى..

ونحن نصف هنا كيف تربّى وكيف انتقل في أحواله حتى يبلغ المبلغ العظيم».

«وألفَ الطفلُ تلك الظبيةَ حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت إليه. ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية، فتربّى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تمّ له حولان، وتدرّج في المشي وأَثغَر (ظهرت أسنانه) فكان يتبع تلك الظبية، وكانت هي ترفق به و ترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر، فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة

النضيجة؛ وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها؛ ومتى عاد إلى اللبن أروته، ومتى ظمئ إلى الماء أوردته، ومتى ضَحا (تعرض للشمس) ظلّلته؛ ومتى خَصِر (بَرَدَ) أدفأته. وإذا جنّ الليل صرفته إلى مكانه الأول، وجلّلته بنفسها وبريش كان هناك؛ ممّا مُلئ به التابوت أولاً في وقت وضع الطفل فيه»...

ثم يبيّن ما دخل فيه هذا الطفل حين بلغ السابعة من تجارب ليكسي جسمه ويحتمي من الوحوش « إلى أن صادف في الأيام نسرًا ميتًا، فهُدي إلى نيل أمله منه، واغتنم الفرصة... فأقدم عليه، وقَطَع جناحيه وذنبَه صحاحًا كما هي، وفتح ريشَها وسوّاها، وسلخَ عنه سائرَ جلده، وفصلَه على قطعتين: ربط إحداهما على ظهره، وأخرى على سرّته وما تحتها، وعلّق الذَنَب من خلفه، وعَلّق الجناحين على عَضُديه، فأكسبه ذلك سترًا ودفئًا ومهابةً في نفوس جميع الوحوش، حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه. فصار لايدنو إليه شيء منها سوى الظبية التي كانت أرضعته وربّته، فإنها لم تفارقه ولا فارقها، إلى أن أسنّت وضَعُفت، فكان يرتاد بها المراعي الخصبة، ويجتني لها الثمرات الحلوة، ويطعمها. ومازال الهزل والضعف يستولي عليها ويتوالى، إلى أن أدركها الموت، فسكنت حركاتها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها»...

وهنا راح يبحث عن سبب الموت، وتوصل بعد جهد إلى أن العامل هو «الروح»...

ثم اهتدى إلى النار فقد «اتفق في بعض الأحيان أن انقدحت

نار في أَجمَةِ قَلْخٍ (القصب) على سبيل المحاكّة. فلما بَصُر بها رأى منظرًا هاله، وخلقًا لم يعهده قبل، فوقف يتعجّب منها مليًا، ومازال يدنو منها شيئًا فشيئًا، فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه وأحالته إلى نفسها، فحمله، العجب بها.

وبما ركّب الله تعالى في طباعه من الجراءة و القوة، على أن مدّ يده إليها، وأراد أن يأخذ منها شيئًا، فلما باشرها أحرقت يده، فلم يستطع القبضَ عليها، فاهتدى إلى أن يأخذ قبسًا لم تستول النار على جميعه، فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر، فتأتّى له ذلك، وحمله إلى موضعه الذي كان يأوي إليه. وكان قد خلا في جُحرٍ استحسنه للسُكنى قبل ذلك.

ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل، ويتعهدهًا ليلاً ونهارًا استحسانًا منه وتعجبًا منها.

وكان يزيد أُنسَه بها ليلاً، لأنها كانت تقوم له مقامَ الشمس في الضياء والدفء، فعظم بها ولوعُه، واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه»

ثمّ «اهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف (نوع من الطيور) فاتخذ مخزنًا وبيتًا لفضلة غذائه، وحصّنَ عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض، لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شؤونه».

ثم بدأ يمعن النظر في الجماد والنبات والحيوان، ويتبين

خصائصَها. ويتتبّع الصورَ التي كان قد عاينها قبل ذلك، صورةً صورة، فرأى أنها كلها حادثة، وأنها لا بد لها من فاعل.

ثم نظر إلى ذوات الصور، فلم ير أنها شيء أكثر من استعداد الجسم لأن يصدرَ عنه ذلك الفعل، مثل الماء، فإنه إذا أفرط عليه التسخين، استعدّ للحركة إلى فوق وصَلُح لها.

فذلك الاستعداد هو صورته، إذ ليس ها هنا إلا جسم وأشياء تُحسّ عنه، بعد أن لم تكن؛ فصُلوحُ الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته، ولاح له مثل ذلك في جميع الصور، فتبين له أنّ الأفعالَ الصادرةَ عنها ليست في الحقيقة لها، وإنما هي لفاعل يفعل بها الأفعالَ المنسوبة إليها؛ وهذا المعنى الذي لاح له، هو قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «كنت سمعُه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصُر به» وفي محكم التنزيل: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ صدق الله العظيم.

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل، ما لاح على الإجمال دون تفصيل، حَدَثَ له شوقٌ حثيث إلى معرفته على التفصيل، ولأنه لم يكن بعدُ فارقَ عالم الحسّ، جعل يطلب هذا الفاعلَ على جهةِ المحسوسات، وهو لا يعلم بعدُ هل هو واحد أو كثير؟».

ثم أخذ ينظر إلى السماء وكواكبها، « وما زال يتصفّح حركةَ القمر، فيراها آخذة من المغرب إلى المشرق، وحركات الكواكب السيارة كذلك، حتى تبيّن له قدر كبير من علم

الهيئة، وظهر له أن حركتها لا تكون إلا بأفلاك كثيرة، كلها مضمنة في فَلَكٍ واحد، هو أعلاها. وهو الذي يحرّك الكلّ مِنَ المشرق إلى المغرب في اليوم والليلة» وتوصل إلى أنه « لابد للعالم من فاعل ليس بجسم، وإذا لم يكن جسمًا فليس إلى إدراكه لشيء من الحواس سبيل، لأنّ الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام، وإذا لا يمكن أن يُحسّ فلا يمكن أن يُتخيّل، لأن التخيّل ليس شيئًا إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبتها، وإذا لم يكن جسمًا فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه، وأول صفات الأجسام هو الامتداد في الطول والعرض والعمق، وهو منزّه عن ذلك، وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام. وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟﴾ صدق الله العظيم» ...

« فما زال يتتبع صفات الكمال كلها، فيراها له وصادرة عنه، ويرى أنه أحقّ بها من كل ما يوصف بها دونه. وتتبّعَ صفاتِ النقصِ كلَّها فرآه بريئًا منها، ومنزهًا عنها؛ وكيف لا يكون بريئًا منها وليس معنى النقص إلا العدم المحض، أو ما يتعلق بالعدم؟ وكيف يكون العدم تعلّقَ أو تلبّسَ بمن هو الوجود المحض، الواجب الوجود بذاته، المعطي لكل ذي وجود وجوده، فلا وجود إلا هو: فهو الوجود، وهو الكمال، وهو التمام، وهو الحُسنُ، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم، وهو وهو، و ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ صدق الله العظيم» ...

ثم «تبين له أن كمال ذاته ولذّتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام، مشاهدةً بالفعل أبدًا، حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيّته، وهو في حال المشاهدة بالفعل، فتتصل لذّته دون أن يتخلّلها ألم» ...

ويستغرق في التفكير ويطوي مراحلَ السير والسلوك حتى يصلَ إلى مرتبة مشاهدة الذوات العلوية، وهنا ينفتح على عالم الجمال الحقيقي ويشاهد «لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء، واللذة والفرح، ما لا عينَ رأت، ولا أذنَ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر». « ورأى لِذاتِه ولتلك الذوات التي في رتبته من الحُسنِ والبهاء واللذة غير المتناهية، ما لا عينَ رأت ولا أُذنَ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشر، ولا يصفه الواصفون، ولا يعقله إلا الواصلون العارفون» ...

وبعد أن يستعرض الكاتب مشاهدات حيّ بن يقظان يقول:

« فهذا القدر هو الذي أمكنني الآن أن أشير إليك به فيما شاهده حي بن يقظان في ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الألفاظ فإن ذلك كالمتعذّر» ...

ثم يتابع ابن طفيل القصّة بذكر جزيرة «قريبة من الجزيرة التي وُلد بها حي بن يقظان» فيها رجلان صالحان أحدهما سلامان والآخر أبسال.

«فأما أبسال فكان أشد غوصًا على الباطن، وأكثر عثورًا على

المعاني الروحانية، وأطمع في التأويل، وأما سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظًا بالظاهر، وأشد بعدًا عن التأويل، وأوقف عن التصرف والتأمل؛ وكلاهما مجدّ في الأعمال الظاهرة، ومحاسبة النفس، ومجاهدة الهوى، وكان في تلك الشريعة (الشريعة التي يعمل بها أهل تلك الجزيرة) أقوال تحمل على العزلة والانفراد، وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما؛ وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة، فتعلق أبسال بطلب العزلة».

«كان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما. وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي ذكر أن حي بن يقظان تكون بها، وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل، وأن الانفراد بها يتأتى لملتمسه، فأجمع أن يرتحل إليها، ويعتزل الناس بها بقية عمره. فجمع ما كان له من المال، واشترى ببعضه مركبًا تحمله إلى تلك الجزيرة، وفرّق باقيه على المساكين، وودّع صاحبه سلامان، وركب متنَ البحر؛ فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة؛ ووضعوه بساحلها؛ وانفصلوا عنها، فبقي أبسال بتلك الجزيرة يعبد الله عزّ وجل؛ ويعظّمه ويقدّسه؛ ويفكّر في أسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فلا ينقطع خاطره؛ ولا تتكدّر فكرته. وإذا احتاج إلى غذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسدّ بها جوعته. وأقام على تلك الحال مدّة، وهو في أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه».

ثم يلتقي أبسال فجأة بحيّ بن يقظان، فيخاف منه لهيئته

وملبسه، فيفرّ، ثم يتبعه حيّ، وبعد حوادث يتعارفان، ثم يقصّ على حيّ تجاربه وما توصّل إليه من حقائق.

«لم يشك أبسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان؛ فانفتح بصر قلبه، وانقدحت نار خطره، وتطابق عنده المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق التأويل، ولم يبق عليه مشكل في الشرع إلا تبين له، ولا مغلق إلا انفتح، ولا غامض إلا اتضح، وصار من أولي الألباب».

ثم وصف لحيّ بن يقظان «جميعَ ما ورد في الشريعة من وصف العالم الإلهي، والجنة والنار، والبعث والنشور، والحشر والحساب، والميزان والصراط.ففهم حيّ بن يقظان ذلك كله، ولم ير فيه شيء على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم.فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به مُحقّ في وصفه، صادق في قوله، ورسول من عند ربه؛ فآمن به، وصدّقه، وشهد برسالته.ثم جاء يسأله عما جاء به من الفرائض، ووضعه من العبادات؛ فوصف له الصلاة والزكاة، والصيام والحج، وما أشبهها من الأعمال الظاهرة؛ فتلقى ذلك والتزمه، وأخذ نفسه بأدائه امتثالاً للأمر الذي صحّ عنده صدق قوله».

ثم رغب حيّ بن يقظان أن يقدّم تجربته الإيمانية هذه إلى أهل جزيرة أبسال. فرحلا إلى تلك الجزيرة، ورحّب بهما الناس،

واستقبلوهما باحترام. وحين بدأ حيّ يتحدث إلى الناس أعرضوا عنه. «فيأس من إصلاحهم، وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم.وتصفّح طبقات الناس بعد ذلك، فرأى كل حزب بما لديهم فرحون، قد اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم شهواتهم، وتهالكوا في جمع حُطام الدنيا، ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر، لا تنجح فيهم الموعظة، ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة، ولا يزدادون بالجدل إلا إصرارًا. وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها، ولا حظّ لهم منه، قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما يكسبون. ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾.

فلما رأى سرادقَ العذاب قد أحاط بهم، وظلمات الحُجُب قد تغشّتهم، والكل منهم – إلا اليسير – لا يتمسكون من ملّتهم إلا بالدنيا، وقد نبذوا أعمالهم على خفّتها وسهولتها وراء ظهورهم، واشتروا بها ثمنًا قليلاً، وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارةُ والبيعُ، ولم يخافوا يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار».

«فودّعاهم وانفصلا عنهم وتلطّفا في العود إلى جزيرتهما حتى يسّر الله عزّ وجّل عليهما العبور إليها.وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولاً حتى عاد إليه، واقتدى به أبسال حتى قرب من أو كاد وعبَدَا الله في تلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين».

انتصارات في ساحة جهاد النفس

الشهيد الصدر نموذجًا

• انتصر الشهيد الصدر على الحاجز الطائفي حين انفتح على المشروع الإسلامي الكبير • الشهيد الصدر: بذلت وجودي من أجل الشيعي والسني على السواء •إن المعركة في العراق ليست بين السنة والشيعة • أنا معك يا أخي السني ويا أخي الشيعي بقدر ما أنت مع الإسلام • السيد الصدر: سأبقى أتعامل مع السيد الخوئي كما يتعامل الابن مع والده والتلميذ مع أستاذه •وددت لو دفعت الموت عن السيد الحكيم بدمي •السيد الصدر للإمام الخميني: استمد من توجيهكم الشريف نفحة روحية.

الانتصار في ساحة جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وهو وراء كل ما حققته البشرية وحققه الإنسان في دروب التكامل الإنساني.

وإذ ذكرنا في مقال العدد السابق انتصار الطبرسي في حقلين: الانتصار على جدار الطائفية، والانتصار على جدار المعاصرة. فإننا نقف عند هذين الانتصارين في حياة الشهيد السعيد محمد باقر الصدر، رغم اعترافنا بأن هذين الانتصارين يشكلان جزءًا صغيرًا

من انتصاراته الكبرى المتوالية في حياته على ساحة النفس والفكر والجهاد الدامي.

انتصاره على حاجز الطائفية برز في خطابه الذي ارتفع ليقدّم المشروع الإسلامي في مجالات الفكر والحياة، فكانت مؤلفاته رسالية إسلامية احتضنها المجتمع الإسلامي المعاصر بكل مذاهبه واتجاهاته.

ثم برز بشكل واضح عند تصاعد روح الجهاد في العراق، وتولّيه قيادة حركة الأمة في هذا البلد الممتحن، فوجّه خطابًا حطّم فيه جدران الطائفية، علمًا بأنه كان رضوان الله تعالى عليه يعيش في جوٍّ بعيد إلى حدٍ كبير عن الانفتاح وتجاوز الطائفية.

* * *

في أحد بياناته التي وجهها إلى الشعب العراقي يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز..

أيها الشعب العظيم..

إني أخاطبكم في هذه اللحظة العصيبة من محنتك، وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك، لأن المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر، ولا قومية دون أخرى، وكما أن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي فيجب أن

يكون الموقف الجهادي، والرد البطولي، والتلاحم النضالي هو واقع كل الشعب العراقي.

وإني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حين دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعًا، وعن العقيدة التي تضمهم جميعًا، ولم أعش بفكري وكياني إلا للإسلام طريق الخلاص، وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلط والذل والاضطهاد.

إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة، أن المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر، إن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني، إن الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل علي السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديًّا في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول «أبي بكر» وكلنا نحارب عن راية الإسلام، وتحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي.

إن الحكم السني الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة – قبل نصف قرن – بوجوب الجهاد من أجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصًا من أجل الحفاظ على راية الإسلام ومن أجل حماية الحكم السني الذي كان يقوم على أساس الإسلام.

إن الحكم الواقع اليوم ليس حكمًا سنيًا، وإن كانت الفئة المتسلطة تنتسب تاريخيًا إلى التسنن، إن الحكم السني لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحداه طواغيت الحكم في العراق في كل تصرفاتهم، فهم ينتهكون حرمة الإسلام وحرمة علي وعمر معًا في كل يوم، وفي كل خطوة من خطواتهم الإجرامية.

ألا ترون يا أولادي وإخواني أنهم اسقطوا الشعائر الدينية التي دافع عنها علي وعمر معًا.

ألا ترون أنهم ملؤوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير، وكل وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معًا.

ألا ترون أنهم يمارسون أشد ألوان الظلم والطغيان تجاه كل فئات الشعب، ويزدادون يومًا بعد يوم حقدًا على الشعب، وتفننًا في امتهان كرامته، والانفصال عنه، والاعتصام ضده في مقاصيرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كان علي وعمر يعيشان مع الناس، وفي وسط الناس، ومع آلامهم وآمالهم.

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكارًا عسكريًا عشائريًا،

يسبغون عليه طابع الحزب زورًا وبهتانًا، وسد هؤلاء أبواب التقدم أمام كل جماهير الشعب سوى أولئك الذي رضوا لأنفسهم بالذل والخنوع، وباعوا كرامتهم وتحولوا إلى عبيد أذلاء.

إن هؤلاء المتسلطين قد امتهنوا حتى حزب البعث، حيث عملوا من أجل تحويله إلى عصابة تطلب الانضمام إليها والانتساب لها بالقوة والإكراه، وإلا فأي حزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يفرض الانتساب إليه بالقوة؟!...

يا إخوتي وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامراء والكاظمية، من أبناء العمارة والكوت والسليمانية من أبناء العراق في كل مكان، إني أعاهدكم بأني لكم جميعًا، ومن أجلكم جميعًا، وإنكم جميعًا هدفي في الحاضر والمستقبل، فلتتوحد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن اجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة، وبناء عراق حر كريم تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعًا على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنهم إخوة، يساهمون جميعًا في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الإسلامية، وفجر تاريخنا العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد باقر الصدر

النجف الأشرف

***

أما انتصاره على المعاصرة، فنذكر موقفه من ثلاثة مراجع عاصرهم هم: الإمام الخوئي والإمام الحكيم والإمام الخميني.

لقد شاع أنه ثمة جفوة بين السيد الصدر والسيد الخوئي، فوجّه جماعة من المؤمنين رسالة بهذا الشأن إليه وهذا هو السؤال والجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم لدينا علاقتكم الروحية منذ القديم مع سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الأعلى السيد الخوئي دام ظله الوارف، لكن هناك بعض المسموعات التي أوجبت ما استدعى أن نتوجه إليكم بالسؤال مباشرة عن هذا الموضوع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم، إن هذا السؤال الذي تتفضلون بتوجيهه إلي يوجب شكري من ناحية، إذ تتيحون لي بذلك الفرصة للتعبير عن واقع نفسي، ويؤلمني من ناحية أخرى المًا شديدًا لأنه يوحي بأن علاقة هي من أشرف وأطهر وأقدس العلاقات في حياتي وكأنها عرضة للشك والسؤال، وهي علاقتي بسيدنا واستأذنا وسندنا استأذنا آية الله العظمى الإمام الخوئي دام ظله الوارف، هذا الأستاذ الذي أبصرت نور العلم في حوزته وذقت طعم المعرفة على يده، وان أعظم ما ينعم الله به على الإنسان بعد الإيمان هو العلم، ولئن كنت قد حصلت على شيء من هذه النعمة فإن فضل ذلك يعود إليه فلست إلا ثمرة وجوده وفيضه

الشريف، وولداً من أولاده الروحيين.

وإذا كان هنا من يحاول غض النظر عن هذه الحقيقة أو ينسب هذا البغض إليّ إما لأجل حرف قلب الأب عن ابنه أو لأجل استغلال مكانة هذا الابن للتأثير على المقام الأعلى للأب، فاني اغتنم فرصة سؤالكم الكريم لأقول لكم بكل وضوح إني أتعامل مع السيد الخوئي دام ظله وسأظل كذلك كما يتعامل الابن مع أبيه، والتلميذ مع أستاذه والطالب مع مرجعه، وقد صرحت بذلك مراراً للناس وللطلبة وللمسؤولين، ولا أرضى عن أي شخص إلا أن يعترف بذلك ويتعامل معي ومعه على هذا الأساس، وإذا أراد شخص ان ينوه باسم هذا الجانب فليعلم أن مما يزعجني أشد الإزعاج أن يخرج هذا التنويه عن مقتضيات العلاقة الطويلة بين الابن وأبيه والتلميذ وأستاذه وكل خروج عن هذه المقتضيات مناقض لسلوكي وتعاملي، وقد جرى ديدن العلماء على التمييز بين الأمرين: بين الإفتاء وإصدار ما يتضمن ذلك لمن يحتاج إليه في عمله الديني الشخصي وبين الالتزام بمتطلبات المرجعية العليا وصيانتها، ونحن نرى لزوم التمييز بين هذين الأمرين فلا يجوز الخلط بينهما ولا يجوز مس مقام المرجعية العليا، ولا يجوز أي عمل يقصد به تفتيت الشمل المجتمع للمؤمنين على مرجعيتهم العليا وتمزيق كلمتهم.

وإني أبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يمتعنا بدوام وجود

السيد الأستاذ والاستظلال بظله الوارف والقيام بواجب البنوّة له والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٨/ جمادي الأولى/ ١٣٩٦ – ١٩٧٦م

محمد باقر الصدر

* * *

وعند رحيل الإمام الحكيم، وجّه السيد الشهيد الصدر رسالة إلى نجله السيد الشهيد مهدي الحكيم عبّر فيها عن مشاعره الطافحة تجاه السيد الحكيم، ومما جاء فيها:

«أكتب إليكم وقلبي يتفطر وكياني يتفجر ألمًا، والدنيا أمام عيني مظلمة بعد أن انطفأت الشمس وهوى العماد وتهدم البنيان الذي تعلقت به آمال كل الواعين من المسلمين، وسقطت الراية التي عشنا في ظلها ونعمنا في فيئها ... أي والله يا أخي نعمنا في فيئها.. وما ألذه من نعيم، وما أروعها من راية تسقط وهي في قمة الصمود والثبات، في قمة النظافة والطهر، في قمة الاستقامة والنزاهة، في قمة الشموخ، مهما احتشدت المصائب ومهما تفرقت بالناس المذاهب.

أكتب هذه الكلمات وأمامي شريط من الذكريات، ما أعظمها من ذكريات!! عن الزعامة الرشيدة، التي كان بودي وبود المئات من المخلصين أن يشتروا بقاءها بدمائهم، وأن يدفعوا عنها الموت بكل ثمن، ولئن كان الموت أمر الله الذي لا يرد وقضاءه في أنبيائه

وكافة أوليائه الذي لا يمكن أن يدفع، فإن على كل المسلمين أن يدفعوا عن زعيمهم ومرجعهم الموت لا بوصفه إنسانًا من لحم ودم، فإن هذا الإنسان قد مات ولكن بوصفه خطًا للعمل في سبيل الله، ومدرسة لتخريج العلماء المجاهدين، ومنعطفًا في تاريخ المرجعية ومفهومًا يشكل الأساس لبناء الأمة من جديد».

* * *

وبعد انتصار الثورة الإسلامية، وتحرّك السيد الشهيد الصدر لتأييدها بالفكر والمواقف العملية، حاصره النظام العراقي البائد، وشدّد عليه ووجّه إليه أنواع الضغوط، فشاع أن السيد الصدر ينوي مغادرة العراق، فأرسل إليه السيد الإمام الخميني رسالة يطلب منه أن يبقى في النجف الاشرف، فكان جواب السيد الشهيد مايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد روح الله الخميني دام ظله

تلقيت برقيتكم الكريمة التي جسدت أبوتكم ورعايتكم الروحية للنجف الأشرف الذي لا يزال منذ فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة، وإني أستمد من توجيهكم الشريف نفحة روحية، كما أشعر بعمق المسؤولية في الحفاظ على الكيان العلمي للنجف الأشرف، وأود أن أعبر لكم بهذه المناسبة عن تحيات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز الذي وجد في نور الإسلام

الذي أشرق من جديد على يدكم ضوءًا هاديًا للعالم كله وطاقة روحية لضرب المستعمر الكافر والاستعمار الأمريكي خاصة، ولتحرير العالم من كل أشكاله الإجرامية وفي مقدمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدسة فلسطين. ونسأل المولى سبحانه وتعالى أن يمتعنا بدوام وجودكم الغالي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف ـ محمد باقر الصدر

* * *

هذه نماذج من مواقف السيد الشهيد الصدر بل انتصاراته في جبهتين هما: الطائفية والمعاصرة، وهي كما قلنا جزءًا من انتصاراته الكبرى في حقل جهاده الأكبر.

من أذكار شهر رمضان

يا خير المسؤولين وأوسع المعطين اشف به صدورنا، وأذهب به غيظ قلوبنا، واهدنا به لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وانصرنا به على عدوك وعدونا إله الحقّ أمين.

اللهم إنّا نشكو إليك فَقدَ نبينا صلواتك عليه وآله، وغيبة ولينا، وكثرة عدونا، وقلة عددنا، وشدَّة الفتن بنا، وتظاهر الزمان علينا.

من هنا وهناك

جائزة اتحاد جامعات العالم الإسلامي للبحث العلمي لعام ٢٠٠٨

أعلن اتحاد جامعات العالم الإسلامي، الذي يعمل في إطار المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو-، عن تخصيص جائزة للبحث العلمي للعام الحالي ٢٠٠٨، تتناول موضوع : «قيم التسامح في مناهج التعليم الجامعي»، وذلك بدعم من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض وبتعاون معها.

وحدد اتحاد جامعات العالم الإسلامي الشروط العلمية للجائزة في وضوح الرؤية وتميّزها، ومنهجية البحث العلمي الجامعي (توثيق المصادر والمراجع)، والموضوعية العلمية، وسلامة التعبير وتماسك البناء، والاستناد إلى المرجعية القيمية الأصيلة، والانفتاح على المستجدات الإيجابية المعاصرة، وتعزيز القيم الإسلامية والإنسانية المشتركة.

ندوة حول البيئة من منظور التراث الطبي الإسلامي

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- ندوة إقليمية في تونس العاصمة حول البيئة من منظور التراث الطبي الإسلامي، في الفترة من ٢٣إلى ٢٧ يونيوالماضي، بالتعاون

مع اللجنة الوطنية التونسية للتربية والعلم والثقافة.

وهدفت الندوة إلى التعريف بالتنمية المستدامة ومراقبة الوضع البيئي والارتقاء بمستوى الوعي بالحلول وطرق الوقاية والعلاج الملائمة لها، وبجهود العلماء المسلمين في دراسة الشروط البيئية والعوامل المؤثرة في الحفاظ على بيئة صحيحة وسليمة، ودعم الدول الأعضاء في مواجهة التحديات وربط التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالتنمية الصحية لبلوغ الأهداف الإنمائية للألفية.

ونوقشت في الندوة عدد من المحاور التي تتناول تعريف تلوث الهواء وتحديد أسبابه وحالاته ومعالجته في التراث العربي. شروط إقامة المساكن وبنائها من الناحية المعمارية وتأثيرها على الصحة العامة للإنسان، وأهمية الطب الوقائي في معالجة عناصر البيئة من ماء وهواء وتربة وغيره وتحسين خصائصها قبل استثمارها، والأمراض الناجمة عن تلوث البيئة : كيفية الوقاية من التلوث والأمراض قبل حدوثها، وكيفية علاج الأمراض بعد علاجها، والإجراءات المتخذة للحفاظ على صحة البيئة، ومكافحة التلوث في كتب الحسبة التراثية.

ندوة ثقافية في الإسكندرية حول العلامة أبي طاهر السلفي

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو– ندوة ثقافية في مدينة الإسكندرية، حول العلامة

المحدث أبي طاهر السِّلفي (بكسر السين المشددة) من علماء مدينة الإسكندرية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وذلك يومي ٢٧ و٢٨ الماضي.

وتدخل هذه الندوة في إطار الأنشطة الثقافية التي تنظمها الإيسيسكوبمناسبة اختيار الإسكندرية عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٨ عن المنطقة العربية، تنفيذاً لقرار من المؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة.

ورشة عمل حول دور النساء في مشروعات التنمية المستدامة

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو–، بالتعاون مع مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث "كوثر" في تونس، ورشة عمل إقليمية حول دور النساء في مشروعات التنمية المستدامة وآليات تصميم المشاريع الصغرى ومحاربة الفقر، وذلك في الفترة من ٢١ إلى ٢٤ يوليو الماضي في العاصمة التونسية.

واستهدفت هذه الورشة التي يشارك فيها خبراء وخبيرات من مؤسسات حكومية ومؤسسات أهلية وممثلون عن منظمات عربية ودولية، إلى دعم دور النساء في التنمية بتخفيف وطأة الفقر وتخفيض نسبة الأمية، وتفعيل دور الخدمات العامة الموجهة إليها في ميادين الصحة والتعليم وتنمية الموارد البشرية.

ويشمل برنامج الورشة عروضاً نظرية وأوراق عمل حول تجارب عملية

وصدرت عن الورشة توصيات تفضي إلى إقرار خطط للدعم الإيجابي للمرأة تساعد في الوصول إلى تكافؤ الفرص في كل ميادين التنمية.

دورة تدريبية في الإسكندرية حول دور التراث الحضاري في تنشيط السياحة الثقافية

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو–، بالتعاون مع اللجنة الوطنية المصرية للتربية والثقافة والعلوم، دورة تدريبية حول دور التراث الحضاري في تنشيط السياحة الثقافية وعلاقتها بتعزيز التنمية المستدامة، خلال الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ يوليوالماضي في مدينة الإسكندرية.

ويشارك في هذه الدورة التدريبية، التي تأتي في إطار الاحتفاء بمدينة الإسكندرية عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٨، ثلاثون متدرباً ينتسبون لوزارتي السياحة والثقافة في مصر.

وتهدف هذه الدورة إلى المحافظة على المواقع الأثرية والحضارية والاستفادة منها اقتصادياً وثقافياً وسياحياً، وإبراز دور السياحة الثقافية في تحقيق التنمية المستدامة، وتوعية المتدربين بأهمية السياحة باعتبارها أداة للتنوع الثقافي.

ندوة عن حافظ الشيرازي

اقامت المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الإيرانية في بيروت ندوة لمناقشة كتاب عمر شبلي (حافظ الشيرازي بالعربية شعراً في جزئه الثاني)

بداية ألقيت كلمة ترحيبية باسم المستشارية الثقافية، جاء فيها : يمكن القول ان شعر حافظ هو مزيج من معاني العشق ومن المعاني الاجتماعية والعرفانية. وفي كل قصائده الغزلية يقصد الى جانب العبارات العادية ايصال مفاهيم متعالية عن الوجود والحب والعفو ، كما يقصد ايصال جماليات الخلقة والطبيعة والإرادة العرفانية للفكر القوي. وكل واحدة من هذه المضامين لها طابع تعليمي ومليئة بالعبر وتُعلّم الناس طريقة ونهج وأسلوب الحياة.

ولذلك يكاد لايوجد بيت في إيران يخلو من ديوان حافظ ، فالإيرانيون يحترمون ديوانه كثيراً ويتبادلون مع ديوانه أسرارهم ومكنونات نفوسهم، وذلك عن طريق التفاؤل باشعاره ولهذا فهم يطلقون عليه (لسان الغيب) و (ترجمان الأسرار). بعد ذلك تحدث الدكتور علي زيتون مدير معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية الفرع الرابع، فأشار الى أن كتاب عمر شبلي حافظ الشيرازي بالعربية شعراً بمقدماته الطويلة التي يضيفها الى كتابه تشكل عتاباً رقيقاً موجهاً الى

كل المهتمين بالأدب والثقافة، أضاف زيتون: ولعل قوله إن الشعر الحافظي يشكل انعكاساً يلهب تلك النار المقدسة في وجدان هذا المعتكف في محاريب العشق والجمال ، هو قراءة للعملية الشعرية المعقدة.

من جهته الدكتور حبيب فياض المتخصص في الفلسفة والأدب الفارسي قدم مداخلة اعتبر فيها ان الوجود مساوق اللغة، المساوقة فلسفياً تعني شيئية واحدة مع تعدد الحيثية وعليه لا لغة من دون وجود كما لا وجود من دون لغة. الوجود يتمظهر باللغة واللغة تتشيّأ بالوجود ومن التماهي بين اللغة والوجود، تنبثق المعرفة. تابع فياض يقول جلال الدين الرومي : يحصل العشق عندما تمسك يد القلب يد الحبيب ، وكأن يد حافظ القلب قد امسكت يد الدكتور عمر شبلي فأنتج عملاً إبداعياً ما كان ليبصر النور لولا توفيق إلهي خاص، وهو إرادة فذة و لغة طيعة وعشق لاينضب. وهذا العمل هو في كل حال انجاز مهم ومشروع حياة، وليس قصيدة ينظمها شاعر أو مقالة يكتبها كاتب، بل هو تجربة لا يخوض فيها الاعارف وعاشق، واذا كانت العبارة تضيق من اتساع الرؤية فنحن هذه المرة مع الدكتور عمر شبلي أمام عبارات فسيحة تعبر عن رؤى متسقة وبعد ذلك جرت مناقشات لمضمون الكتاب الشعري وقدمت العديد من المداخلات.

فوائد مهمة

لاستثمار خير الشهور *

رشاد عبدالحليم لاشين

(شـــهر عظـــيم مبـــارك) وصـــف نبـــوي رائـــع لخـــير الشهور... فرمضان موسم ربح عظـيم لا يضـيعه إلا خاسـر، ولا يقعد عن المنافسة فيه إلا خائر، ولا يحرم فضله إلا شقي... وهذه العظمة وتلك البركة يرجب أن تُشدَّ إليها الرحال، وأن ترتب لها الظروف والأحوال، وأن تُعد لها العدة وأن تشحذ لها الهمة.

كان رسولنا الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم يشتاق إليه وينتظره ويدعو الله أن يمدّ في عمره حتى يبلغه، وكان يبشر الصحابة الكرام بقدومه ويشجعهم على التنافس فيه حتى يكونوا من الذين يتباهى بهم ربّ العزة وتحتفي بهم الملائكة في السموات العلا فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: "أتاكم رمضان شهر بركة

---

* - باختصار من اسلام اون لاين.

يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته فأروا الله من أنفسكم خيرا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل" رواه الطبراني ورجاله ثقات (عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه).

ومن أجل هذا وجب الإعداد والتخطيط الجيد لاستثمار هذه الفرصة العظيمة، وبين يدي ذلك نقدم هذه الفوائد المهمة:

أولاً: حدد أهدافك في هذا الشهر الكريم:

أقبل على الله تعالى بنية صالحة مخلصة وعزيمة قوية صادقة؛ وافتح مع ربك صفحة جديدة بالتوبة من الذنوب والمعاصي، وجدد النية لصيام شهر رمضان، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله الكريم، وابدأ بوضع أهدافك لهذا الموسم العظيم، واعلم أنه: على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم؛ وليكن هدفك الرئيسي هو تحصيل التقوى ﴿لعلكم تتقون﴾، ويمكن أن تقسم أهدافك الفرعية كالتالي:

أولا: مع نفسك. ثانيًا: مع أسرتك. ثالثًا: مع أرحامك. رابعًا: مع جيرانك. خامسًا: مع زملائك في العمل. سادسًا: مع أمة الإسلام. سابعًا: .... ثامناً: .... وهكذا...

ثانياً: خطط للآتي:

برنامج للقرآن الكريم: بحيث تستزيد من الكم الهائل من

الحسنات المضاعفة، واحرص على أن تختم القرآن عدة مرات، واحرص على حفظ قدر من القرآن الكريم يوميًّا، وتنافس في ذلك مع أحبابك للتشجيع والتحفيز.

برنامج للدعاء: حدد مطالبك، واكتب أدعيتك، واحرص على ترديدها في هذا الموسم العظيم، واسأل ربك معالي الأمور فهو الجواد الكريم.

خطط برنامج للتزود من العلم

برنامج للزيارات

خطط للصدقات

ثالثاً: احرص على الاستيعاب الفقهي الجيد للصيام وآدابه:

بأن تهتم أنت والأسرة بمدارسة آداب وفقه الصيام بطريقة مبسطة في بداية رمضان، أو قبل بدايته إن أمكن من أجل الاستعداد الجيد للأمر قبل الممارسة بدون علم؛ وبالتالي تحاشي الوقوع في الأخطاء مع الحرص على الفتاوى لبعض الحالات الخاصة بالتواصل مع العلماء.

احرص على أن يكون صيامك في أعلى الدرجات:

١ – صوم العموم: كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

٢ – صوم الخصوص: كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

٣ –صوم خصوص الخصوص: صوم القلب عن الهمم الدنيئة،

والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية.

رابعاً: احرص على تشجيع أسرتك وتهيئتها بصورة جيدة لاستثمار الشهر الكريم:

اعقد مع زوجتك وأبنائك لقاءً أسريًّا تحت عنوان (هيا نستثمر رمضان) اجلس معهم وتشاوروا جميعا عن إعداد برنامج للاستفادة من الشهر الكريم؛ حفزهم وستجد بإذن الله عندهم أفكاراً ظريفة؛ واحرصوا على الخروج بخطة مكتوبة ذات وسائل واقعية ويمكن قياسها ومتابعتها.

خامساً: احرص على تزيين بيتك والأماكن العامة بزينة رمضان الجميلة:

واستفد من ذلك في إدخال البهجة والسرور على أنفس الناس جميعاً، وخصوصاً الأطفال إضافة إلى نشر المبادئ النبيلة، مثل الحجاب والاهتمام بالقرآن ومواساة المسلمين.

سادساً: احم وقتك في رمضان واحرص على حسن توظيفه:

وقت رمضان الغالي الثمين الذي يتضاعف فيه الأجر والثواب يتطلب الاستثمار الجيد والحماية من الضياع وذلك بالآتي:

أ – ضع خطة زمنية مكتوبة لاستثمار الشهر الكريم:

١ – خطة إجمالية للشهر كله: بحيث تقوم بتوزيع الوسائل التي تخدم الأهداف التي وضعتها على الشهر كله وتكون مكتوبة لتتابع نفسك وأسرتك فيها أولاً بأول.

٢ – خطة يومية لتنظيم الوقت خلال اليوم الواحد: وقت تجلس فيه الأسرة سويًّا –ساعات النوم– أوقات القراءة– أوقات الزيارة والتواصل الاجتماعي –أوقات مذاكرة الأبناء– ..... وهكذا؛ هيا ننظم شؤوننا ونبتعد عن العشوائية ولا نترك أنفسنا للظروف.

ب – ضوابط لحماية وقت رمضان:

١ – تجهيز المتطلبات اللازمة للمنزل قبل رمضان قدر الإمكان: مثل الأطعمة التي يمكن تخزينها.

٢ – شراء متطلبات العيد من ملابس وغيرها قبل رمضان بدلاً من تضييع الأوقات الكثيرة في الزحام في العشر الأواخر.

٣ – عدم التوسع في أوقات الزيارة أو الإكثار من المراسيم والعزائم.

٤ – الاقتصاد في الأوقات التي تقضيها أمام وسائل الإعلام حتى لو كنت تشاهد برامج صالحة: فالإعلام بوسائله الجذابة أكول للوقت؛ والأصل أن تؤدي الأعمال الصالحة بدلاً من الإكثار في مشاهدة الصالحين وتحرم نفسك؛ ليكن الأمر متوازناً مشاهدة صالحة هادفة، وبلا إسراف وفي أوقات محددة.

ج– حاول أن تستفيد من الوقت الواحد في أكثر من عمل:

مثل الذكر أثناء المشي أو تلاوة القرآن في السفر أو الاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم واحرص على أن تصحب المصحف دائما.

سابعاً: احرص على التخطيط الجيد للعبادة:

أ – إياك أن تكثر من الطعام في وقت الإفطار. ب – احرص على أوقات السحر التي تتفتح فيها أبواب السماء. ج – احرص على حجة وعمرة تامتين كل يوم أو على قدر استطاعتك: باستثمار الوقت من صلاة الفجر حتى شروق الشمس في ذكر الله تعالى ثم صلاة الضحى.

ثامناً: راعِ في الزيارات والولائم الآتي:

١ – أن يكون وقت الزيارة غير طويل من ٢/١ إلى ٤/٣ ساعة على الأكثر.

٢ – احرص على أن تكون الولائم بعيدة عن العشر الأواخر.

٣ – احرص على أن تنتهي الوليمة قبل العشاء بوقت كافٍ حتى لا تضيع صلاة العشاء في الجماعة ولا تضيع التراويح.

٤ – احرص على توظيف الزيارات في إرشاد أحبابك إلى الخير، واجتهد أن تذكرهم هذا العام بحسن انتخاب أجهزة الحكم ممن يخشون الله تعالى ويسعون لإصلاح وطنهم وتجنب الثرثرة والغيبة والنميمة والخوض في أعراض الناس.

٥ – يفضل أن تكون الولائم في العشر الأوائل قدر الإمكان.

٦ – تجنب الإسراف والمباهاة والترف حتى لا تخرج عن مقصود الشهر الكريم.

٧ – لا تنس الفقراء والمساكين في ولائمك فهم الأولى.

٨– عدم جعل الولائم وسيلة للتنافس الاجتماعي والمباهاة.